الإسلام دين الحياة
الكتاب الخامس

دكتور محمد عمارة

أزمة الفكر الإسلامى المعاصر

دار الشرق الأوسط للنشر

تمهيد

ونحن نتحدث عن « أزمة الفكر » – فى المحيط الاسلامى – نستطيع ، بل يجب أن نستحضر النبوءة النبوية التى تحدث فيها رسول الله صلى عليه وسلم ، عن موقف الطوائف والأجيال والتيارات وأصناف الناس من فكر الإسلام وعلمه ومنهجه .. ففى هذا الاستحضار – فضلا عن العظة والاعتبار – قبس من نور النبوة يضىء طريق الخروج من هذه « الأزمة » التى تمسك بخناق العقل المسلم والأمة المسلمة فى هذا العصر الذى نعيش فيه ..

ففى الحديث الذى يرويه أبو موسى الأشعرى – رضى الله عنه – يقول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « إن مثل مابعثنى الله ، عز وجل ، به من الهُدَى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منه :

● طائفة قبلت ، فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير .

● وكانت منها : أجادب ، امسكت الماء ، فنفع الله ، عز وجل ، بها ناسا ، فشربوا فرعوا وسقوا وزرعوا وأسقوا .

● وأصابت طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ .

فذلك مثل :

من فقه فى دين الله ، عز وجل ، ونفعه الله ، عز وجل ، بما

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

يعتنى به ، ونفع به ، فَعَلِمَ وعَلَّم .

ومثل : من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله ، عز وجل ، الذى « أُرْسِلتُ به » [1]

لقد جاء الاسلام باعتباره الحلقة الخاتمة فى سلسلة الرسالات السماوية التى كانت حلقات تجديد للدين الالهى الواحد ، وللشرائع الإلهية المتعددة بتعَدد وتطور واختلاف أمم الرسالات .. ولقد كان الجهاد الأول والأكبر الذى قام المسلمون الأوائل بفريضته ، هو الوعى بهدى الله وعلم النبوة ومنهاج هذا الدين ، الأمر الذى أثمر الأمة التى قبلت الاسلام وأقبلت عليه ، فتوحدت به ومعه وفيه ، فكان الوعى بالذات الإسلامية ، والانتماء الى خصائصها ، والانخراط فى موكبها ، والجهاد فى سبيل « التقنية الاسلامية » ، عندما تجسدت « العقيدة » نموذجا حيا فى أمة المسلمين وفى دار الاسلام ..

فالعقل الذى أصبح إسلاميا ـ بعد أن كان جاهليا ـ جاهلية العرب أو الفرس أو الروم ـ قد قرأ وتدبر ووعى « كتاب الوحى » و « كتاب الكون » ، فأبدع علوم الحضارة وأقام صروح المدنية ، بعد أن أضاف إلى إبداعه المواريث الفكرية القديمة ، التى عرضها على معايير الاسلام ، فاستصفاها وصَفَّاها من غبش الجاهلية ووثنيتها وجورها وزيغها عن سبيل الله .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد .

ذلك مثل الطائفة التى قبلت هدى الله وعلم النبوة فانتفعت به ونَفَعَت - عَلِمتَ وعلّمت - كما تقبل الأرض الطيبة الغيث ، فتنبت الكلأ والعشب الكثير ! ..

لقد واجهوا طواغيت عصرهم ، وقواه الكبرى المتحكمة والمهيمنة .. وواجهوا مواريث الأمم السابقة - بما فيها من صلاح وفساد - بوعى لا غبش فيه ، بطبيعة وتميز وامتياز الرسالة التى يحملون ، وبانتماء ، لا شرك فيه ، إلى هذا الدين ، وبشوق إلى الشهادة فى سبيل إقامة الاسلام وتجسيد القرآن، حياة تسعى وتنمو وتمتد وتتطور على هذه الأرض ، تحقيقا للخلافة التى أرادها الله لهذا الانسان فى هذا الوجود ..

وإذا كان توالى السنين ، ومعها طوارىء الأمراض والعوارض ، هو مما يصيب الصحة الجسدية بالوهن والعلل ، فإن هذه السنة تنسحب أيضا على الأنساق الفكرية ، يصيبها توالى السنين والقرون ، والعلل الذاتية والوافدة بالغبش الذى يحجب صفاءها ويفل من عزمها ويقلل من فاعليتها ، فإذا لم يتداركها المجددون بالتجديد والمجاهدون بالجهاد الذى يجسدها نموذجا حيا معاشا ، طويت صفحتها الحية ، وتحولت إلى متحف التاريخ ! ..

ولما كانت خلافة الإنسان عن الله هى إرادة إلهية نافذة ، كانت رعايته ، سبحانه وتعالى ، إحدى ألطافه ونعمه ، سبحانه وتعالى ، على هذا الانسان .. فكان تعاقب الرسالات السماوية تجديدا للنسق

الدينى فى فكر هذا الانسان .. وعندما بلغ هذا الانسان مرحلة الرشد ، وشاء الله ختم طور النبوة والرسالة والوحى بمحمد ، صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن الكريم ، استمر التجديد سنة من سنن الإسلام ، لينفى به المجددون عن هذا الدين طوارىء القرون وعللها ، وأمراض الغلو ، إفراطا وتفريطا ، **فالتجديد ، فى هذه الرسالة الخاتمة ، هو القائم بمهمة الرسالات المتوالية فى تاريخ النبوة القديم ، ولذلك كان علماء هذه الأمة ، المجددون لدينها ، مثلهم فى هذا الميدان ، كمثل أنبياء بنى إسرائيل فى التاريخ الدينى القديم .. إنهم ورثة الأنبياء .. يجدد العدول منهم هذا الدين ، عندما ينفون عنه الزوائد ويعيدون إليه النواقص ، ويكشفون عن طاقاته وإمكاناته لتفعل فعلها فى هداية الإنسان .. وصدق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »** . [1] !



واليوم .. لانغالى إذا قلنا إن إجماعا يكاد أن ينعقد على أن الفكر الإسلامى يعيش فى أزمة ، وعلى أن هذه الأزمة الفكرية قد أوقعت أمة هذا الفكر فى مأزق حضارى .. فأهل الفكر – بتياراتهم المختلفة – يسلمون بذلك ، مع اختلافهم فى تحديد أسباب هذه الأزمة ، وفى

---

(١) رواه ابو داود .

تعيين سبل الخروج منها .. وواقع الأمة يشهد على ذلك ، حتى لدى الذين لايتخذون من الفكر صناعة يتخصصون ويبرعون فيها »..

لقد تحققت نبؤة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تلك التى صاغها فى حديثه الذى يقول فيه : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ غريبا ، فطوبى للغرباء »[1]

بل إن هذه الغربة الحالية ، هى – حتى الآن – متميزة عن الغربة الأولى ، **لأن « الغرباء » الذين حملوا الاسلام فى عهده الأول قد امتلكوا – على النحو الذى أشرنا اليه – المؤهلات التى جعلتهم يواجهون به قوى ذلك التاريخ وطواغيته ومواريثه ، وينتصرون .. « أما غرباء » هذا العصر ، من الذين تحققت فيهم صفات الطائفة التى تقبلت الهدى الالهى والعلم النبوى والمنهج الاسلامى ، فعَلمته وعَلَمته ، وآنتفعت به ونفعت ، فإنهم من القلة العددية ، وتبعثر الجهود والطاقات ، بحيث لايكاد يدرك الأكثرون لهم فعلا ولا تأثيرا ..**

صحيح أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد تعهد بحفظ هذا الدين ، عندما تعهد بحفظ كتابه المبين [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون][2] .. لكن الأكثرية من أبناء الأمة قد غدا حفظهم لهذا الدين أشبه مايكون بحفظ الأرض الجدباء والصخرية للماء ، حفظ لايبدد التركة ، لكنه لا ينتفع بها ، فضلا عن أن ينفع بها ! ..

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة والدارمى والامام أحمد .

(٢) الحجر : ٩

حفظ لا ينبت الكلأ والعشب الكثير .. وإنما هو إمساك للماء ، ماء الغيث ، فى انتظار من يتقبله ، فينتفع به وينفع ، صنعا للجديد بالتجديد .. ذلك هو حال أهل الجمود على الموروث ، بالنسبة الى « الغرباء » ، أهل التجديد ! ..

أما الطائفة الثالثة من طوائف هذه الأمة – التى أشارت إليها نبوءة الرسول ، صلى الله عليه وسلم .. فهى تلك التى انتزعها طواغيت العصر – من القوى الكبرى – بالغزو الفكرى والاستلاب الحضارى .. لقد انفصلت عن الوعى بالإسلام والانحياز لمنهجه والالتزام برؤيته والجهاد فى سبيله ، فغدت ، بالنسبة لتراثه ، كالقيعان « التى لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ » ! .. إنهم يفرون من الالتزام الاسلامى ، فلم يعودوا يرفعون به رأسا ، ولايقبلون هدى الله الذى جاء به رسوله ، عليه الصلاة والسلام ! ..

لهذا كان عجزنا أمام طواغيت العصر عجزا مخجلا .. فلم ننتصر كما انتصر الأولون .. ولهذا كان فشلنا فى الاستفادة بمواريث الآخرين فشلا ذريعا ، فلم نستفد منها ، ونتفوق عليها كما صنع الأولون .. إن حفظنا لتراث الإسلام – فى أغلبه الأعم – هو حفظ « الأراضى الأجادب » التى لم تضيع الماء ، لكنها لم تنتفع به ، فتلد وتنبت وتبدع الجديد .. ومالم تتغير موازين القوى على خارطة الحياة الفكرية لأمتنا الإسلامية ، فيصبح التأثير الأفعل والأعمق هو لتيار الإحياء الإسلامى والتجديد الحضارى ، فستظل غربة الاسلام قائمة حتى فى

ديار أمته ، وسيظل عجز هذه الأمة عن تحقيق المقاصد الحقيقية لخلافة الإنسان عن الله : إعمار هذا الكون على النحو الذى تكون فيه كلمة الله هى العليا فى هذا العمران .. سيظل هذا العجز عن تحقيق هذه المقاصد قائما ! ..

* * *

ثم .. إن هذه الأزمة الفكرية ، التى قادت وتقود الأمة إلى هذا المأزق الحضارى .. ليست خاصية تنفرد بها أمة الإسلام .. فحتى طواغيت اليوم ، وقواه الكبرى والمهيمنة ، يعانون هم الآخرون من أزمة فكرية ، ومن مأزق حضارى .. كما كان حال أسلافهم الذين واجههم المسلمون الأولون ..

● إننا نعانى من « **انعدام** » وضوح الرؤية ، ومن **فقدان الاتجاه** .. وهم يعانون من « **قلة** » وضوح الرؤية ، ومن **فقدان الاتجاه الصحيح** ..

● ونحن نعانى من « **الضعف** » الذى يجعل كثرتنا غثاء كغثاء السيل ، لا فعل لها ولاتأثير .. وهم يعانون من « **تضخم** » « القوة المتوحشة » ، التى تهدد « الوجود » بـ « الفناء » ! ..

● **ونحن نعانى من « فقر الإبداع »** ، لافتقارنا إلى الإحساس بخصوصيتنا ، ولانعدام الإنتماء إلى مشروعنا الحضارى ، الذى يفجر فينا طاقات الابداع .. وهم يعانون من « خلل توزان ثمرات

الابداع » ، ففى ميادين القوة والوفرة المادية ، قفزت وتقفز حضارتهم قفزات عملاقة ، على حين أصابها ويصيبها الفقر الشديد فى غير هذين الميدانين ، فافتقد إنسانها التوازن الحضارى ، والاتساق الداخلى ، والاطمئنان الآمل عندما انعدمت فى نسقه الفكرى حكمة الحياة ، وغاية الوجود ، وإنسانية القوة والوفرة المادية .. إنه الإبداع الأعرج ، القائم على ساق واحدة ، الذى حقق لإنسان الحضارة الغربية : قوة الوحوش الكاسرة ، ويشبَع من يأكل فى سبعة أمعاء ، مع أقصى درجات القلق والعبثية وانعدام المعنى الإنسانى للحياة ! ..

إنهم يألمون كما نألم .. لكن مع اختلاف الأسباب .. الأمر الذى يجعل من خروج الفكر الإسلامى من أزمته ، وانعتاق الأمة الإسلامية من مأزقها الحضارى ، الحل لمشكلنا نحن وحدنا وإنما يجعل منه إسهاما مطلوبا لترشيد الخيارات الحضارية الأخرى ، وخاصة الخيار الغربى ... فالإسلام الناهض المتجدد ، هو المرشح اليوم لممارسة المهمة التى نهض بها عندما ظهر ... مهمة الإحياء والترشيد والتجديد حتى فى إطار القوى التى ناصبته وتناصبه العداء ! .. مهمة الشهود الحضارى الفاعل فى « منتدى الحضارات » الإنسانية ! ..

لذلك « لاغرابة فى أن تتصدر مشكلة « أزمة الفكر الاسلامى » قائمة المشاكل التى تواجه العقل المسلم فى هذا العصر الذى نعيش فيه .. ولاغرابة اذا نحن دعونا « أهل الذكر » إلى الاهتمام بها أيما أهتمام ، وإلى إدارة أعمق وأوسع الحوارات حول ماهاا وفيها من أسباب وأعراض وسمات .

وإذا كان لهذه الصفحات أن تلتقط من قضايا هذا المبحث - مبحث أزمة الفكر الاسلامى المعاصر نماذج من المشكلات المثارة فى المباحث التى تعرض لهذه القضية .. فإن هناك - على سبيل المثال - قضايا ومشكلات تواجه العقل المسلم ، ويعانى منها ، عندما يطرق مباحث هذا الميدان .. هناك مثلا :

١ - قضية : العقل ماهو ؟ .. وما الموقف منه ؟ .. وضرورة تحريره .. لكن ، من ماذا ؟! ..
٢ - وقضية : علاقة الجديد والتجديد بالتراث ؟ ..
٣ - وقضية : الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة والمعاصرة ؟ ..
٤ - وقضية : الموقف من « الآخر الحضارى » - والحضارة الغربية على وجه الخصوص ؟ ..
٥ - وقضية : « انقسام العقل المسلم » حول مرجعية مشروعه الحضارى ؟ ..

تلك نماذج لأبرز قضايا أزمة الفكر الاسلامى المعاصر .. والتى تطمح هذه الصفحات أن تلقى عليها بعض الأضواء .

— ١ —

العَقْل .. وتَحْريْرُه

ماذا يعنى ؟ .. وماهِيَّة التحرير ؟؟

إن أولى القضايا المشكلة ، فى أزمة الفكر الاسلامي المعاصر ، هى قضية « العقل » .. والموقف منه كأداة للنظر والبرهنة والاستدلال ... والموقف من الشعارات المطروحة حول ضرورة تحرير العقل المسلم من القيود التى تكبله .. ماهى هذه القيود ؟ .. وهل مايعده غيرنا قيودا على النظر العقلى هى كذلك فى النظرة الاسلامية ؟ ..

إن العقل والعقلانية ، والنزعة العقلية — فى المنظور الاسلامى — ليس جوهرا مستقلا ، ومناقضا لغيره من سبل النظر وتحصيل المعارف وأدوات الإدراك .. فإذا كان المنهج العقلى ، والمفكر ذو النزعة العمَلية ، فى المصطلحات السائدة بالفكر الغربى يعنى التميز والاستقلال ، بل والمقابلة والتناقض مع المناهج والنزعات الوجدانية والحدسية والنقلية ، فليس كذلك الحال فى منظور الرؤية الاسلامية لعلاقة العقل والعقلانية بمناهج النظر والإدراك الأخرى ..

فالعقل — فى مصطلح العربية ومفهوم الاسلام — ليس « عضوا » ، وإنما هو « فعل التعقل » .. وبه وبالقلب والنُّهى واللُّب ، وبالنظر والتدبر والتفكر والفقه كان التعبير القرآنى عن سبيل هذا المنهج من مناهج النظر وعن مضمون هذا المصطلح .. وفعل

التعقل إنما يتم من إنسان يمتلك سبلا اخرى للنظر والإدراك .. وموضوع النظر والادراك ، وعوالمها من الكثرة والتعقد إلى الحد الذى يستحيل تحصيل معارفها ، أو الممكن والمتاح من معارفها ، بسبيل واحد من سبل النظر والإدراك هذه .. فالقصور شديد فى محصول كل سبيل اذا هو انفرد وانقطعت علائقه بالسبل الأخرى ، والأفق أوسع والمحصول أغنى اذا تعاونت سبل النظر والإدراك فى تحصيل المعرفة من مصادرها وعوالمها المتعددة المختلفة ..

كذلك ، فإن النقل – وهو الوحى – فى المنظور الإسلامى ، ليس مقابلا للعقل والعقلانية ، بل إنه ثمرة للعقلانية .. فحجية النقل مترتبة على حجية الرسول الذى بَلغَّه .. وحجية الرسول المبلِّغ مترتبة على الايمان بالله الذى أرسل الرسول بالوحى المنقول .. وسبيل هذا الايمان هو النظر العقلى فى كتاب الكون المصنوع على نحو لانهائى من الإبداع والإحكام فى الصنعة والتقدير والرعاية والتدبير .. فكأنما كان التصديق بهذا النقل – كتاب الوحى – هو ثمرة عقلية للنظر فى كتاب الكون – استدلالا بالمصنوع البديع على الصانع المبدع « الأمر الذى جعل ويجعل التزامل حتما والاشتراك ضرورة بين « كتاب الوحى » و « كتاب الكون » وبين العقل ، كأداة للنظر فيهما معا ، متعاونا فى ذلك ومستعينا بكل أدوات النظر الأخرى ..

ذلك هو العقل ، وتلك هى العقلانية ، والنزعة العقلية فى منهج الاسلام .. **فليس هناك تقابل بين العقل والنقل ، ولا بين الوحى**

والكون .. وليس هناك استقلال للنظر العقلى عن غيره من سبل النظر والإدراك .. وإنما تتفاوت المناهج واصحابها فى المقام والأهمية التى تعطى لكل سبيل من سبل النظر فى عملية البحث عن الحقيقة ، وهو تفاوت يجب أن تحكمه طبيعة المبحث وميدان النظر وحقل التفكير .

وإذا كان هذا هو مقام العقل ومكانته بين سبل النظر فى الوحى والدين .. فإن الدين الاسلامى غير مقطوع الصلة بالعقلانية ، بل إنه موضوع من موضوعات المباحث العقلية وميدان من ميادين النزعة العقلية .. لأنه حكم على العقل فيما لايستقل العقل بإدراكه من عوالم الغيب والسمعيات ، وميادين الذوق والوجدانيات .. إنه ميزان للعقل ، يميز صحيحه من فاسده الذى شط به الغرور ، يكونان معا — ومعهما كتاب الكون : المعالم المتحدة التى أقامها الله ، سبحانه وتعالى ، لهداية الإنسان الى سبيل الرشاد .

ومن هنا ، فإن « تحرير العقل » المسلم — كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامى المعاصر — يجب أن تفهم على أنها تحريره من الجمود والتقليد الأعمى .. وتحريره من الغرور .. وتحريره من الهوى .. تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف ، سواء أكان هذا السلف هو سلفنا نحن ، أم سلف الحضارة الغربية .. فالجمود النصوصى آفة ، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم مستوردة عن « الآخر الحضارى » ! ..

والغرور العقلانى ، الذى يزعم أهله قدرة العقل على الاستقلال بإدراك اى شيء ، الى الحد الذى يحكمون فيه « بالاستحالة » على كل مالاتدركه عقولهم .. هو موقف أشبه مايكون بعبث الطفولة — مع افتقاره الى براءة الأطفال ؟! ..

فإذا كان المنهج العلمى فى التفكير ، والسبيل الموضوعى لاكتشاف الحقيقة وتحصيل المعرفة والوعى بالوجود ، وكذلك الأسلوب الدقيق لوصف المكتشفات والتعبير عنها .. اذا كان ذلك جميعه رهنا برؤية الظاهرة موضوع الدرس من كل جوانبها ، والربط الحى بين كل سماتها وقسماتها وعوالمها وأسبابها وتأثيراتها وظواهرها ومتغيراتها .. فإن المنهج الاسلامى ، الذى لايقف فى العالم ، عند « عالم الشهادة » وحده .. وفى الإنسان عند « الحاجات الاقتصادية » وحدها .. وفى المجتمع عند « العوامل المادية » أو « الفكرية » دون غيرها .. وفى سُبل الوعى والمعرفة عند « الحواس » دون سواها .. إن هذا المنهج الاسلامى الجامع المحيط ، هو المنهج العلمى الوحيد .. وإن سبيله هو السبيل الموضوعى لاكتشاف الحقيقة ، وإن أسلوبه هذا هو الأسلوب الأدق فى وصفها ..

وفى ضوء هذه الحقيقة ، نتساءل — التساؤل الإنكارى والاستنكارى ! — لماذا يقف « الجدل » فقط عند « الفكرة » وحدها — كما هو حاله عند « هيجل » Hegel [١٧٧٠ — ١٨٣١ م] ؟؟ .. ولماذا يقف هذا « الجدل » عند « المادة » وحدها

– كما هو مذهب ماركس Marx [١٨١٧ – ١٨٨٣ م]
و« أنجلز » Engels [١٨٢٠ – ١٨٩٥] ؟؟.. لماذا لايكون
« الجدل » والعلاقة فى الظاهرة المدروسة – فكرية أو طبيعية أو
إنسانية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية – شاملا وجامعا ومحيطا
بكل الجوانب والسمات والقسمات والمؤثرات ، مع إعطاء كل عامل
وزنه وحقه وقدره فى الفعل والانفعال ؟؟! ..

إن الذى لايصدق بما هو أبعد مما تدركه التجربة الحسية والعقل
المحدود القدرات ، فينفى العلمية عن كل مالا يخضع للتجريب
والاختبار الحى ، هو أشبه مايكون بمن يكذب بوجود ما لاتدركه
عينه المجردة ، قبل اختراع العقل « للميكرسكوب »
و« التيلسكوب » وأمثالهما من وسائل « التكبير » و« التقريب » !..
هو أشبه مايكون بمن يكذب بما لايحيطه عقله ، حتى ولو أحاطت
به عقول الآخرين !.. هو أشبه بمن يختزل الحقيقة إلى الحجم الذى
يستوعبه ويتسع إدراكه المحدود !.. وهو موقف قد ينقضه تطوره
هو ، ويغيره نمو إدراكه هو ، وذلك فضلا عن إدراك الآخرين ،
وعن الإدراك بالمناهج التى تلتزم – بحق – الرؤية والإدراك للأشياء
والظواهر من كافة الجوانب ، ومن جميع الوجوه ، وفى كل الأبعاد .

إن « ماركس » ، الذى لم ير من القوى المحركة للتطور والصانعة
للتاريخ ، والفاعلة فى أدوات الانتاج ، والحاسمة فى علاقات الإنتاج ،

سوى القوى المادية – وفى مقدمتها الاقتصاد – فأرجع إليها جميع ماعداها – إن ماركس هذا عندما اطلع على طرف من تاريخ التطور الاجتماعى للشرق الاسلامى ، وقرأ – بمكتبة المتحف البريطانى – أحد كتب « الأموال » الإسلامية ، بدا له جديد لم يكن فى نطاق إدراكه عندما وقف بعوامل التطور وأدوات الانتاج وعلاقاته وبالجدل عند المادة وحدها .. فكتب – فى « مراسلاته إلى أنجلز » ينبه على أهمية دراسة تراث الاسلام ، لاكتشاف وتحديد التميز الذى فيه .. واذا كانت مشاغله ومنيته قد حالت بينه وبين تحقيق عزمه على دراسة التراث الاقتصادى والاجتماعى للاسلام ، فإن الذين أتوا من بعده قد سلموا بهذا التميز ، لكن طغيان النزعة المادية قد منعهم من تسمية الاشياء بأسمائها الحقيقية .. فتحدثوا عن « نمط الانتاج الآسيوى » – ولم يقولوا « الإسلامى – ثم إنهم – وهذا هو الأهم – نكصوا على أعقابهم ، فلم يستخلصوا من هذا النمط المتميز فى الانتاج منهجا جديدا ينقض الدوران فى منهجهم الفكرى حول المادة ، كالعامل الأول والأوحد فى الفعل والتأثير .. حتى جاء واحد من فلاسفتهم المعاصرين – روجيه جارودى – فكتب – قبل اهتدائه الى الاسلام – يقول : ان الماركسية نظرية أوروبية ، لأن أصولها ومكوناتها أوربية غربية :

١ – الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ..

٢ – والاشتراكية الفرنسية ..

٣ – والاقتصاد السياسى الانجليزى ..

ولو أن الظروف قد أتاحت لماركس تحقيق العزم الذى حَدَّث « إنجلز » عنه فى « المراسلات » ، فاستكمل دراسة تراث الإسلام ، لأصبح للماركسية أصل رابع ، غير أوربى ، ولخرجت من إطار النظرية « الاقليمية » ، ولتبدّل حالها بهذه الإضافة الاسلامية .. وذلك بدلا من أن تظل — كما حدث لها — « اقليمية » ، بل و « ريفية » [1] ؟! ..

ذلك شاهد واحد على ما فى غرور العقل من شطط وخطل وخطر .. وبرهان على أن تحرير العقل — كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامى المعاصر — يجب أن يعنى تحريره من جمود التقليد الأعمى ، ومن الغرور ، ومن الهوى .. جميعا .. فهذا هو — بحق — جوهر التحرير ، وكامل التحرير ! .. ورحم الله الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ — ١٩٠٥ م] عندما تحدث عن هذه المهمة — باعتبارها أولى المهام التى جاهد فى سبيل انجازها — فقال « لقد ارتفع صوتى بالدعوة الى : **تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلفَ الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم**

---

(١) انظر محاضرة جارودى عن « الإسلام والإشتراكية » — مجلة « الطليعة » — المصرية — عدد يناير ١٩٧٥م . ص ١٤٩ ، ١٥٣ . وانظر — كذلك — جارودى (ماركسية القرن العشرين) ص ٥٩ ، ٧٤ ترجمة : لزيه الحكيم . طبعة بيروت ١٩٦٧ م .

الانسانى ، وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا الى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل ، كل هذا أعده أمرا واحدا .. [1] ..

هذا عن قضية : العقل .. ومكانته من سبل النظر الأخرى .. وعن تحريره ، لينهض بدوره فى اخراج الأمة من مأزقها الحضارى ، بإخراج فكرها من الأزمة التى تمسك منه بالخناق ! ..

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٢ ص ٣١٨ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

— ٢ —

علاقة الجديد والتجديد بالتراث

ونحن نعالج مشكلات أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، علينا أن ندرك للإسلام فى التجديد ، منهجا متميزا .. « فالتجديد » غير « النسخ » .. فهو و« الحداثة » – بالمعنى الغربى – نقيضان . إن من موروثنا الفكرى ماهو وحى إلهى ، ووضع ربّانى ، مَثَّل ويمثل فى حياة هذه الأمة : الصانع الأول لوجودها الحضارى والقومى والفكرى .. هو صانع وحدتها ، ومُقْتضِى دولتها ، ومُعين حدود وطنها ، وخالق مزاج هُويَّتها ، والمكون الأعظم لبصمتها الحضارية التى تتميز بها وتمتاز فى « منتدى حضارات » الأمم والشعوب ..

وهذا القطاع من موروثنا الفكرى ثابت من الثوابت .. ونسخه إنما يعنى نسخ تميز وامتياز هذه الأمة .. إنه رحم نسبها الشرعى ، الذى يمنع عنها وصمة عار « التابع – اللقيط ! » ..

وإذا كان « النسخ » أو « التجاوز » غير وارد مع هذا القطاع من الموروث – الذى تمثّل ويتمثّل فى البلاغ القرآنى وفى البيان النبوى لهذا البلاغ – فإن للتجديد معه صلة وسببا ونسبا ، تحتاج إلى البيان والتحديد .. فالتجديد فى هذه الثوابت وارد ، لا لأن حديث رسول الله ﷺ قد نص على « تجديد الدين » – وليس فقط تجديد فكرنا

« الدينى » – وإنما لأن هذا التجديد هو السبيل لوفاء هذا « الثابت » بدوره الذى أنيط به فى حياة هذه الأمة .. فحتى يظل هذا البلاغ القرآنى وبيانه النبوى ثابتا فى حياة هذه الأمة ، لابد وأن يبقى « فاعلا » فى هذه الحياة – والا كان ثباته « ثباتا متحفيا » ! .. كما هو الحال مع « المومياوات » ! .. وحتى نضمن فعل هذا « الثابت » فى الحياة المتجددة ، لابد من إعمال سنة التجديد لتجلية الوجه الحقيقى لمبادئه وعقائده ومناهجه وأحكامه من زوائد البدع ونواقصها ، ومن غبار الخرافة وركام الشعوذة وانحرافات التصورات ، التى تعلو وجهه الحقيقى مع كر السنين وتوالى الحقب والقرون .. فالعودة الى المنابع الجوهرية والنقية فى هذا « الثابت » وتجلية وجهه الحقيقى لتعود له قدرات الفعل والتأثير ، هى « سلفية » و « تجديد » فى ذات الوقت – وهذا هو المعنى الطيب الوحيد لمصطلح « السلفية » فى منظور الإسلام !.. إنها العودة للمنبع ، لامخاصمة للحاضر والمستقبل ، وإنما لاستصحاب المنبع كى نعقد قرانه على الواقع الجديد !..

ثم .. إن نصوص هذا « الثابت » – الذى اكتمل بتمام الوحى – هى نصوص متناهية ، بينما وقائع الحياة وواقعها رحم ولود بالجديد الذى لايعرف التناهى ولا الحدود .. وهنا يتمثل التجديد فى صورة « الفروع » التى تحمل روح « الثابت » وأصوله ومزاجه العقدى والحضارى ، كى يستظل بها هذا الواقع الجديد .. فالجديد

الذى لايستمد شرعيته وخصوصيته من « الثابت » ، لايعد تجديدا ، لأنه يقطع صلات الواقع الجديد بالأصول الثابتة ، إنه « نسخ » للثوابت ، وليس « تجديدا » لها ! .. وكذلك يفعل « الجمود » الذى لايمد « فروعا » جديدة لتظلل الواقع الجديد ، لأنه يؤدى الى ذات النتيجة ، عندما ينسخ « الواقع » عن « الثابت الفكرى » ! .. فكلاهما ـ الجمود والاستلاب الحضارى ـ وجهان كالحان لعملة واحدة ، هى عملة « السلفية المعَطِّلَة » ـ إذا جاز التعبير ـ فهى تعطل عمل « الثابت » الموروث فى الواقع المعاصر ، إما بالانسحاب من العصر الى الماضى ، وإما باستعارة « ثابت حضارى غريب » تفرضه على الواقع الذى عطلت « ثابتنا » عن العمل فيه ! .. فهو انسحاب من « عصرنا » نحن ، وإن لم يكن انسحابا من « العصر » بإطلاق ؟! ..

تلك هى حدود « القداسة » فى الموروث الفكرى .. وحدود التجديد فيه .. أما ذلك المورث المتنوع والغنى ، والذى يمثل فهم السلف للبلاغ القرآنى ولبيانه النبوى ، والذى أبدعه أسلافنا فى علوم الحضارة ، ثقافة ومدنية ، فإنه بالنسبة لنا : « كنز ـ مرشد » ، علينا أن نتعامل معه بعقل معاصر ، ونظرة ناقدة ، وفكر مستنير ، لنسترشد ونهتدى بما فيه من علم نافع مازال صالح العطاء ـ وهو كثير ، وكثير جدا .. ولننعش به ذاكرة الأمة ، ونشحن به كبرياءها المشروع ، اللازم لها وهى تواجه عاتى التحديات ، ولنوفر جهودا

كثيرة تلزمنا إذا نحن اهملناه وبدأنا من حيث، بدأ الأسلاف .. وهو صنيع السفهاء الذين يرثون موروثا غنيا لايدركون قيمة وعظمة مافيه ! .. وأيضا لنحتفظ لهذه الأمة بخيوط تواصلها الحضارى متينة غير رثة ولا واهية ، ففى ذلك ضمان استقامتها على طريقها فى غابة

الصراع الحضارى القائم الآن فى عالمنا على قدم وساق ..

أما ماتجاوزه التطور من إبداع السلف ، فإننا نتجاوزه ، معتزين به ، وواضعين إياه فى متحف التاريخ الفكرى ، مادة للعظة والعبرة ، ووثيقة فى دراسة هذا التاريخ ! ..

ذلك هو مفهوم .. وتلك هى حدود « الاستلهام » و « التجاوز » لما ورثناه من إبداع أسلافنا فى ميادين الفكر والممارسات .

إننا مدعوّون إلى « حفظ » كل تراثنا ، حفاظا على ذاكرة الأمة ، واستفادة بخبرات السلف ، على النحو الذى يضيف أعمارهم إلى أعمارنا ؟! .. ومدعوون إلى أن « نُحْيِى » من هذا التراث فى واقعنا المعاصر مالديه صلاح وصلاحية كى يزامل إبداعنا الجديد فى تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة والعصرية لأمة تزاحم الأعداء وتواجه التحديات وترنو الى مستقبل أكثر إشراقا من كثير من صفحات تاريخها الطويل ! ..

الهُويَّـة الثقـافيـة

بين « الأصَالة » و « المُعَاصـرة »

فى بداية الحديث عن قضية « الهُوِيَّة الثقافية » وعلاقتها بكل من « الأصالة » و « المعاصرة » .. لابد من تحديد المعنى العلمى للمصطلحات ..

● **فالهُـوِيَّـة** :- فى عرف حضارتنا العربية الإسلامية - **مأخوذة من** : « هُوَ .. هُوَ » .. بمعنى : جوهر الشىء .. **وحقيقته .. فهوية** الإنسان .. أو الثقافة .. أو الحضارة .. هى : **جوهرها وحقيقتها** .. ولما كان فى كل شيء من الأشياء - إنسانا أو ثقافة أو حضارة .. « الثوابت » و « المتغيرات » .. فإن هوية الشىء هى « ثوابته » ، التى « تتجدد » ولا « تتغير » ، تتجلى وتفصح عن ذاتها ، دون أن تخلى مكانها لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة !.. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان ، تتجدد فاعليتها ، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارىء الغبار وعوامل الطمس والحجب ، دون أن تخلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات !..

● ● ●

● **والثقافة** : هى كل مايسهم فى عمران النفس وتهذيبها .. فالتثقيف : من معانيه : التهذيب .. وإذا كانت المدنية هى تهذيب الواقع بالأشياء ، فإن الثقافة هى تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار .. وكلاهما عمران .. عمران للواقع وعمران للنفس .. فهما شقا « الحضارة » — التى هى « العمران » !..

وتعلق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها ، هو الذى يعطى لثقافات الحضارات المتميزة تمايزا .. منبعه ومنطلقه ودواعيه : تميز النفس الإنسانية ، فى كل حضارة من الحضارات ، بتميز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات التى تمايز بين « البصمات » الثقافية فى أهم هذه الحضارات !..

● **والأصالة** :— فى عرف العربية — من : الأصْل .. وأصل كل شىء : نسبه ، الذى إليه يرجع وله ينتسب .. وجوهره وحقيقته وثوابته الباقية ، والمستعصية على الفناء والزوال .. فالأصالة ، فى ثقافة ما ، هى جذورها الأصيلة ، وثوابتها المستمرة ، أى هويتها الممثلة « للبصمة » التى تميزها عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى ..

● **أما المعاصرة** : فإنها المفاعلة ، أى التفاعل بين الإنسان — أو الثقافة أو الحضارة — وبين العصر — أى الزمن — المعيش .. فإذا تمايزت الأمم فى ثقافاتها ، لتمايز هويات هذه الثقافات ، فإنها ولابد

متمايزة فى تفاعلها مع العصر الذى تعيش فيه .. فللأمم المتمايزة فى الهويات الثقافية « معاصرات » متميزة !.. وليست هناك فى العصر الواحد معاصرة واحدة لكل الأمم والثقافات والحضارات ، كما يزعم الذين يحسبون أن المعاصرة هى استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة فى عصر ما .. وليست - كما هى حقيقتها - المفاعلة مع العصر !..

إنها أشبه ماتكون بتفاعل الإنسان وتلاؤمه مع اللحظة الراهنة من عمره ، تفاعلا يضيف به الجديد ، ويتجاوز به غير الملائم من مواريثه ، وفق المعايير التى هى ثوابته .. وأصالته .. وهويته .. إنها الهوية المتميزة .. والأصالة المتميزة ، تتجلى فى طور جديد .. كالإنسان الذى ينمو ويتطور دون أن يفقد هويته أو يتنازل عن أصالته أو يمحو « البصمة » التى تميزه عن غيره من الناس !..

إذن ... فلكل ثقافة أصالة متميزة ، هى هويتها .. وجوهرها .. وحقيقتها .. وثوابتها .. ولكل أصالة ثقافية متميزة معاصرتها المتميزة كذلك !..

هذا عن المصطلحات .. ومضامينها .. ومايمثله ضبط هذه المضامين من إسهام فى وضوح الرؤية الذى نطمح إليه .. وضوح الرؤية لهذا الموضوع .. موضوع : « الهوية الثقافية بين الأصالة والمعاصرة » ..



فإذا ماانتقلنا إلى صلب الموضوع ، وتساءلنا عن هوية ثقافة أمتنا ، التى هى جوهر هذه الثقافة ، وحقيقتها ، والأصالة المميزة لها .. فإننا نستطيع أن نقول : إن الاسلام ، منذ أن تدينت به أغلبية هذه الأمة قد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة ثقافة هذه الأمة .. فهو الذى طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته .. فعاداتنا وتقاليدنا ، وآدابها وفنونها ، وسائر علومها الإنسانية – فى السياسة والاقتصاد والاجتماع – وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية .. ونظرتها للكون .. وللذات .. وللآخر .. وتصوراتها لمكانة الانسان فى هذا الكون .. من أين أتى ؟.. وإلى أين ينتهى ؟.. وحكمة هذا الوجود وغايته ؟.. كل ذلك – وما ماثله – قد أنطبع بطابع الاسلام ، واصطبغ بصبغته .. حتى لنستطيع أن نقول ، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان ، إن ثقافتنا ثقافة إسلامية .. وان معيار الدخول والخروج فى ميدان ثقافتنا ، والقبول والرفض فيها ، هو المعيار الاسلامى ..

وإذا كانت تيارات الأصالة الفكرية ، فى واقعنا المعاصر ، إنما تتمثل أساسا – بل وتكاد تنحصر – فى :

أ – تيار إسلامى .. تنتمى إلى فصائله المتعددة ، أغلبية الأمة ..

ب– وتيار قومى .. هو – فى أغلب فصائله – امتداد لأصالة الأمة اللغوية والتاريخية .

وإذا كان الايمان بأن الاسلام هو ثقافة أمتنا وأصالتها ومعيار تميز

هويتها – ومن ثم معاصرتها – عن أمثالهما فى ثقافات أمم الحضارات الأخرى .. إذا كان ذلك مُسَلَّمَةً من المسلمات الفكرية لدى المسلمين والإسلاميين من أبناء أمتنا .. فإنه ، أيضا ، من المسلمات التى يدعو إليها أبرز فصائل التيار القومى فى واقعنا العربى والإسلامى ..

وإذا كانت هذه الصفحات لاتتسع لاستقصاء الشواهد على أن هذه هى حقيقة موقف التيار القومى من « إسلامية ثقافتنا » .. فإننا نكتفى ، للدلالة على هذه الحقيقة ، بكلمات لواحد من المفكرين والساسة العرب .. هو أبرز المَنظِّرين المعاصرين للتيار القومى والحركة القومية العربية .. وهو أبرز مسيحى عربى برز فى الميدان السياسى للتيار القومى العربى المعاصر .. فكلماته عن « إسلامية ثقافة أمتنا » هى التعبير عن التقاء التيار القومى ، مسيحييه ومسلميه ، مع التيار الإسلامى حول هذه الحقيقة من حقائق هويتنا وأصالتنا الثقافية ..

يقول المفكر القومى – المسيحى الأرثوذكسى – ميشيل عفلق [١٩١٠ – ١٩٨٩ م] :

« لايوجد عربى غير مسلم !.. فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون .. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. وبهذا المعنى لايوجد عربى غير مسلم ، إذا كان هذا العربى صادق العروبة ، وإذا كان متجردا من الأهواء ومتجردا من المصالح الذاتية .. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الاسلام هو

لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء فى عروبتهم .. ولئن كان عجبى شديدا للمسلم الذى لايحب العرب ، فعجبى أشد للعربى الذى لايحب الإسلام ؟!..»[1]

إذن .. فهويتنا الثقافية ، الممثلة لأصالتنا الثقافية .. هوية إسلامية .. وأصالة إسلامية .. على هذه الحقيقة تجتمع تيارات الأصالة الفكرية والسياسية فى بلادنا – إسلامية وقومية – بلسان أبرز منظريها ، مسلمين ومسيحيين !..

* * *

(١) ميشيل عفلق [فى سبيل البعث – الكتابات السياسية الكاملة] جـ ٣ ص ٣٣ ، ٢٦٩ ، جـ ٥ ص ٦٨ طبعة بغداد – دار الحرية للطباعة – ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ م ..

لكن ... ماهى السمات والقسمات الرئيسية التى ميزت ثقافتنا الإسلامية ، فى طور أصالتها ، عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى .. والتى يجب أن تميزها فى طور معاصرتها الراهن ، وفى المستقبل كذلك ، عن الثقافات الأخرى غير الإسلامية ؟؟..

بالطبع ، فإن الإطار المحدد والحيز المحدود لهذه الصفحات لايسمح باستقصاء هذه القسمات الثوابت ، المكونة لهوية ثقافتنا ، والتى تمثل « معايير إسلاميتها » .. ولذلك ، فإننا سنختار سمة رئيسة من سمات هذه « الإسلامية الثقافية » هى : سمة « الوسطية الإسلامية » .. ثم نضرب لها وعليها – فى إيجاز شديد – بعض الأمثال الذى توضح ماذا تعنيه الوسطية الإسلامية فى تميز أصالتنا ومعاصرتنا الثقافية عن ثقافات أمم الحضارات الأخرى ..

إن الوسطية ، فى المنظور القرآنى ، هى صفة رئيسة وجامعة للأمة الإسلامية .. بل إنها إرادة الله لهذه الأمة ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1]..

وإذا كانت الوسطية تعنى رفض الانحياز إلى طرف ضد طرف ، وقطب من أقطاب الظاهرة دون القطب الآخر .. فإنها – فى المفهوم الاسلامى – ليست التوسط المعزول عن الطرفين والقطبين والمغاير لهما تمام المغايرة ، إنها موقف جديد ، وثالث ، لكنه لايغاير قطبى الظاهرة المدروسة ، وإنما يجمع – بالنظرة الشاملة – كل مايمكن

---

(١) سورة البقرة (٢) – الآية : ١٤٣ .

جمعه ، ويؤلف كل مايمكن تأليفه من قطبى الظاهرة المدروسة .. إنها ليست نقطة رياضية ثابتة تتوسط قطبى الظاهرة المدروسة ، وإنما هى موقف جديد يتألف من عناصر الحق والعدل فى القطبين معا .. إنها العدل والتوازن بين القطبين ، وليست الانحياز لواحد منهما ولاالمغايرة التامة لهما !.. إنها الحق بين باطلين .. والعدل بين ظلمين .. والاعتدال والتوازن بين تطرفين وغُلُوَّين !..

ذلك هو معناها ، الذى يحدده الحديث النبوى الشريف : « الوسط : العدل . جعلناكم أمة وسطا »[1].. فالكرم : توازن ، وعدل بين الشح وبين الإسراف والتبذير .. وفيه من تدبير الشحيح ومن عطاء المسرف القدر الذى يمكن جمعه وتأليفه !.. والشجاعة : وسط بين الجبن وبين التهور .. وفيها من تأنِّى الجبان وحساباته ومن إقدام المتهور القدر الذى يمكن جمعه وتأليفه ! .

وإذا نحن أردنا أن نضرب بعض الأمثال على انطباع ثقافتنا الإسلامية – بل وعقل الأمة ووجدانها – بهذه الوسطية الاسلامية ، ومن ثم تميز حضارتها بها .. فإن من الأمثال على ذلك :

● موازنة ثقافتنا وحضارتنا بين « العقل » بين « النقل » .. فهى لاتنحاز لواحد منهما دون الآخر ، ولاتقف بينهما وبمعزل عن كليهما .. وإنما هى تجمع وتؤلف بين مايمكن جمعه وتأليفه من براهينهما .. تؤاخى بين « الحكمة » وبين « الشريعة » باكتشاف

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى [المسند] .

مابينهما من الاتصال .. وتقرأ « النقل » بـ « العقل » .. وتحكم غرور « العقل » فيما لايستقل بإدراكه ، بالأدلة « النقلية » التي جاءت من صاحب العلم المحيط والكلى ، عالم الغيب والشهادة ، سبحانه وتعالى !..

● وهى توازن ، بهذه « الوسطية الجامعة » ، بين مصدرى المعرفة : « الوحى » - وعلومه الشرعية - و« الوجود » - وعلومه الطبيعية - فلا تعتمد « الوحى » وحده ، دون « الوجود » ، وأيضا لاتصنع العكس .. وكذلك لاتقف بينهما وبمعزل عنهما منحازة « للذوق » و« الحدس » و« العرفان الغنوصى[1] الباطنى » .. وإنما هى ترجع إلى « كتاب الوحى المقروء » - القرآن الكريم - و« كتاب الكون المنظور » - الطبيعة - حتى لقد استخدمت حقائق علوم الطبيعة أدلة على إثبات وجود الله - عندما استدلت بالمصنوع على الصانع - واستخدمت آيات الله وسننه سبلا لفهم الطبيعة وتصور ماوراءها !..

● وهى قد صنعت ذلك فى فلسفتها حول « مكانة الإنسان فى هذا الوجود » .. فلم تؤله الانسان ، معتبرة إياه سيد هذا الوجود .. وكذلك لم « تهمش » دوره ، أو تحقر من مكانته ، فتعتبره « الحقير » الذى لاسبيل لخلاصه إلا بالفناء فى الغير أو فى المطلق .. ولم تقف ، أيضا ، بين هذين الموقفين .. وإنما جمعت - بالوسطية - مايمكن

(١) الغنوصى - نسبة إلى الغنوصية - وإلى غنوصيص - أى « المعرفة » نزعة فلسفية ودينية باطنية ، قائمة على أن المعرفة هى طريق الخلاص للإنسان ، وليس الايمان الدينى ، سواء أكان مصدره العقل أو النقل أو هما معا .

جمعه وتأليفه منهما .. فرأت الإنسان سيدا فى الكون وليس سيد الكون ، لأنه « خليفة » عن سيد الكون !..

● وانطلاقا من هذه الوسطية الاسلامية فى تصور « مكانة الإنسان فى هذا الوجود » كانت الوسطية الإسلامية فى « الحرية الانسانية » ..

فالإنسان ليس « المُجْبَر » الذى لاحول له ولاطول .. وليس « الحر » ، دون حدود أو قيود .. هو حر فى إطار قدرته واستطاعته ، وفيما هو مقدور له ، وبإزاء الخيارات التى ليست من صنعه .. وهو – كخليفة عن الله – ملتزم ومقيد بشريعة الله .. هو حر فى إطار « عقد الاستخلاف والإنابة والتوكيل » .. وشوراه – الفردية والاجتماعية – فى الأسرة والدولة – وهى مشاركته الحرة – محكومة بضوابط « الحلال والحرام » الدينية ..

● و« دولته » ، ليست « الدولة الدينية » ، التى تنفى كون الأمة « مصدر السلطات » .. وليست « الدولة العلمانية » ، التى تبيح لسلطات الأمة تجاوز « عقد الاستخلاف » بإباحة الحرام وتحريم الحلال !..

● ونظامه الاجتماعى ، هو الذى يتوسط بين « التظام الطبقى » ، الذى يجعل الطبقة – برجوازية كانت أو البروليتاريا – هى حاملة الرسالة ، رسالة التقدم والعمران ، والساعية إلى نفى الآخر ، والانفراد بالسلطات والثمرات .. وكذلك ، ليس هو النظام

الاجتماعى الذى ينكر التمايز الطبقى فى المجتمع .. وإنما هو النظام الذى يتوسط بين هذين النموذجين ، جامعا فى نموذجه مايمكن جمعه وتأليفه منهما .. فالإسلام دين الجماعة .. والمسئولية فيه فردية فى فروض العين - واجتماعية - فى فروض الكفاية - والتمايز الطبقى فى مجتمعه حقيقة تمثل الفطرة الإنسانية فى تفاوت القدرات والملكات والاحتياجات .. والعلاقة بين هذه الطبقات لابد وأن يحكمها : التوازن - أى العدل - فكل طبقة تعتمد على الأخرى .. فهى علاقة « الارتفاق » و« التسخير » - الشامل لكل ظواهر الطبيعة وقواها - وليس علاقة « السخرة » أو « الظلم والاستغلال » ..

وإذا اختل ميزان العدل بين الطبقات ، فإن الوسطية الاسلامية ترفض « الاستسلام » لهذا الظلم .. وأيضا ترفض « الصراع » الذى يطمح به طرف لنفى الطرف الآخر ، والانفراد بالسلطات والثمرات .. ترفض « الاستسلام » و« الصراع » كليهما ، وتقدم « الدفع الاجتماعى » ، الذى هو « حراك اجتماعى » يبتغى تصحيح العلاقة الاجتماعية بين فرقاء متعددين ، وإعادة هذه العلاقة إلى لحظة « العدل - التوازن » .. فهدف « الدفع » تغيير المواقع ، وليس نفى الآخر الاجتماعى ﴿ **إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾[1] .

---

(١) سورة فصلت (٤١) - الآية : ٣٤ .

● ولقد ذهبت ثقافتنا – ومن ثم حضارتنا – هذا المذهب – فى « الوسطية الجامعة » – حيال « نظرتها إلى الإنسانية » .. فكانت « التعددية – فى إطار الوحدة » هى زاوية رؤيتها للآخرين . .

فدين الله واحد ، أزلا وأبدا .. وشرائعه متعددة بتعدد أمم الرسالات السماوية ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ..** ﴾[1] .. فهنا تعددية فى « الشرائع » ، فى إطار وحدة « الدين » ..

والإنسانية واحدة ، واختلافها وتمايزها إلى أمم وشعوب وحضارات ، سنة من سنن خالقها وآية من آياته وقانون من قوانين الوجود ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾[2] ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[3]

فالواحدية ، فى الشريعة .. أو القومية .. أو الحضارة ، مرفوضة إسلاميا .. والتعددية هى الفلسفة التى يؤكد عليها الاسلام فى كل أنواع الوجود .. والاستثناء الوحيد من التعددية هى ذات الخالق الواحد سبحانه وتعالى !.. ولذلك ، فالعالم ، فى الرؤية الاسلامية ،

---

(١) سورة المائدة (٥) – الآية : ٤٨ .
(٢) سورة الحجرات (٤٩) – الآية : ١٣ .
(٣) سورة الروم (٣٠) – الآية : ٢٢ .

هو « منتدى حضارات » ، تتفاعل وتتعارف ، من موقع التمايز الذى يحفظ لكل حضارة مايميزها عن غيرها من الحضارات ..

● وبهذا المنهاج ، أيضا ، كانت نظرة ثقافتنا إلى التطور .. وإلى التاريخ .. وإلى المواريث الحضارية .. فميزت بين « الثوابت » ، الممثلة « للهوية » ، وبين « المتغيرات » .. وجعلت « التجديد » قانونا فى عالمى الدين والدنيا ، حتى لقد قال نبينا ، ﷺ : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[1] .. وهى بهذا قد رفضت الجمود لكنها ترفض « الحداثة » التى تقتلع الجذور ، وتطمس الهوية ، وتقطع التواصل الحضارى ، عندما تسوى بين « الثوابت » وبين « المتغيرات » .. ترفض هذه « الحداثة » كما ترفض « التحجر والجمود » ، وتختار ، بدلا منهما ، سبيل « التجديد » !..

★ ★ ★

تلك أمثلة على ماتعنيه « الوسطية الاسلامية الجامعة » فى تميز هويتنا وأصالتنا الثقافية .. وإذا كانت « الثوابت » فى سمات « الهوية الثقافية » لها من الاستمرارية والفعل مالايكون « للمتغيرات » و« الجزئيات » ، فإن « التجديد » و« التفاعل » مع الحضارات المختلفة ، يقتضى من كل ثقافة من الثقافات – ويتطلب لها – التمييز ، فى ثمرات الفكر الإنسانى ، بين « المشترك الإنسانى العام » ، الذى

---

(١) رواه أبو داود .

لاتتغاير الحضارات ولاتختلف فى حقائق وقوانين علومه ، لأنها ثابتة ومحايدة ثبات وحياد مادة هذه العلوم وموضوعاتها .. وبين « الخصوصيات الحضارية » - ومنها الثقافات - وهى التى موضوعها « النفس الإنسانية » ، المتميزة فى كل حضارة من الحضارات ، تبعا لتميز المكونات التى تنطبع على صفحتها : دينا ، وفلسفة ، وآدابا وفنونا ، وعادات وتقاليد .. ومواريث تتمايز فيها أمم الحضارات ..

وإذا كانت فلسفة العلوم الطبيعية - ذات القوانين والحقائق الثابتة - هى ما تتمايز فيها الحضارات .. فإن الثقافة - من باب أولى - هى ميدان من ميادين التمايز والتعددية بين الحضارات ..

وعلى « تقنيات الاتصال الحديثة » أن تحقق للعلاقات الثقافية بين أمم الحضارات الانسانية العدالة التى تحفظ المساواة بين هذه الأمم ، كأعضاء متساوية الحقوق والواجبات فى « منتدى الحضارات العالمية المتميزة » .. وأن لاتكون أداة قهر وغلبة لثقافة على ثقافة ولحضارة على حضارة أخرى؟.. وإلا فإنها ستفتح على الأمم الفقيرة والمستضعفة أبواب « رد الفعل العنيف والمضاد » .. وأبواب « الرفض الفكرى » ، الذى لايميز بين ماهو « مشترك إنسانى عام » وبين « الخصوصيات الثقافية والحضارية » !..

وإذا كان « الرفض والانغلاق » يقود أصحابه إلى « الضمور » ، فإن « التقليد والتبعية » تقود أصحابها إلى « الذوبان والفناء » فى الآخرين !..

— ٤ —

العلاقة مع الحضارات الأخرى

وإذا كان هذا هو الموقف من علاقة « الأنا : الحاضرة » فى الثقافة الاسلامية بـ « الموروث الحضارى » ، والهوية الثقافية .. فإن الموقف الراهن فى أزمة الفكر الإسلامى المعاصرة ، يشهد قضية أخرى يدور حولها الجدل ، ويحتدم فى المخرج منها الخلاف .. تلك هى قضية : علاقة « الأنا : الحضارية » بـ « الآخر الحضارى » .. وعلى وجه التحديد ، بـ « الآخر الحضارى » ، المهيمن عالميا ، وهو الحضارة الغربية !..

وفى اعتقادى أن الرؤية الاسلامية لهذه القضية هى من البساطة والتميز والموضوعية ، إلى الحد الذي لابد وأن تحسم حسما نهائيا ، شريطة أن تفهم عناصر هذه الرؤية الاسلامية فهما جيدا .. وهى العناصر التى نوجزها فى هذه النقاط :

● إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم : « **وحدة واحدة متساوية فى الخلق لله الخالق الواحد** » .. وباعتبارهم ، فى ذات الوقت : « **متعددين فى الروابط والجامعات** » .. وهذه « الوحدة فى الخلق » مع « التعددية فى الجامعات » ، هما موطن الإثارة فى الآية الكريمة : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم**

خبير[1] ﴾..

فالاشتراك والوحدة فى الخلق ، وفى الانسانية ، يزامله التعدد والتمايز إلى شعوب وقبائل وأقوام .. بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه ، وسنة من سننه فى خلقه ، فيقول : **﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾**[2] .

● وفى الدين أيضا ، يؤكد الإسلام على « **وحدة البشرية فى دين الله الواحد** » ، أزلا وأبدا .. مع « **تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات الدينية** » ، أزلا وأبدا كذلك .. فالقرآن الكريم قد نزل **﴿ بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾**[3] و **﴿ هو الحق مصدقا لما معهم ﴾**[4] .. والرسول ، ﷺ ، كذلك **﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لَماَ ءَاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾**[5] .. والله سبحانه وتعالى ، يتحدث إلى رسوله فيقول له : **﴿ قل آمنا بالله وماأنزل علينا وماأنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾**[6] .

---

(1) الحجرات : ١٣

(2) الروم : ٢٢ .

(3) البقرة : ٩٧ .

(4) البقرة : ٩١ .

(5) آل عمران : ٨١ .

(6) آل عمران : ٨٤ .

ومع هذه « الوحدة فى الدين » ، كانت « التعددية فى الشرائع » لدى أمم الرسالات .. فالبعثة المحمدية قد تميزت بالشريعة الخاتمة ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون** ﴾[1] .. وكذلك كان حال الأمم السابقة ، فاليهود ﴿ **عندهم التوراة فيها حكم الله** ﴾[2] .. ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ..** ﴾[3] .. وكذلك حال النصارى مع الإنجيل ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾[4] .. ثم كانت الشريعة الخاتمة ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ .. ثم تمضى الآية لتقرر أزلية وأبدية هذه السنة الإلهية فى تعدد الشرائع بتعدد أمم الرسالات ، فتقول : ﴿ **.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾[5]..

ففى الدين : وحدة الرسل والرسالات ، ووحدة أمم هذه الرسالات .. وفى الشريعة : تعددية تتمايز فيها وبها أمم الرسالات .. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات .. ولقد وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا : « إن الشِّرعة والشريعة : هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة .. والمعنى : أن الله جعل

(١) الجاثية : ١٨ .
(٢) المائدة : ٤٣ .
(٣) المائدة : ٤٤ .
(٤) المائدة : ٤٧ .
(٥) المائدة : ٤٨ .

التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد ، لاخلاف فيه .. « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » : أى لجعل شريعتكم واحدة .. « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » .. أى ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم ، « والابتلاء : الاختبار »[1] ..

وعن هذه الحقيقة ، التى أفاض القرآن فى تقريرها وفى الإفصاح عنها – حقيقة : الوحدة فى الدين مع التعددية فى الشرائع – يعبر الحديث النبوى هذا التعبير الجميل ، عندما يقول صلوات الله وسلامه عليه : « الأنبياء : إخوة من عَلاَّت – [أى من أب واحد] – وأمهاتهم شَتَّى . ودينهم واحد[2] . »

فكما توحد الناس ويتوحدون فى الخلق والإنسانية ، مع التعددية فى الأقوام والشعوب والقبائل والألوان واللغات .. كذلك ، قد اتحدوا فى الدين ، وتعددت أمم الرسالات فى الشرائع التى شرعها الله .. فالوحدة .. مع التعددية هى سنة الله ، التى تلتزمها الرؤية الإسلامية فى هذا الميدان ..

● وكذلك الحال فى ميدان الحضارات .. **فعلى مر التاريخ عرفت البشرية التعددية فى الحضارات ، مع الالتقاء والتبادل والتفاعل فيما هو مشترك إنسانى عام بين هذه الحضارات .. فمع الخصوصيات**

---

(1) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] جـ ٦ ص ٢١١ – طبعة دار الكتب المصرية .
(2) رواه البخارى ومسلم .

الحضارية ، التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها ، هناك ماهو مشترك إنسانى عام بينها جميعا ، وخاصة فى المعارف والعلوم التى تشترك فى ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين ..

فالعلاقة بين « الأنا : الحضارية » وبين « الآخر : الحضارى » ، يجب أن يحكمها هذا القانون .. التفاعل والتبادل الحضارى ، لا التبعية - بزعم الوحدة الحضارية - ولا الانغلاق والعزلة - بزعم الاختلاف الكامل والكلى - .. فكما أن التعددية فى الأمم هى سنة من سنن الله فى الخلق ، كذلك التعددية فى الحضارات ، لأن هذا التمايز الحضارى هو واحد من أهم أسباب هذه التعددية بين الأمم .. وكما أن « التعارف » - الذى أمرنا الله به ليكون طابع العلاقات بين الأمم والشعوب - يقتضى العدول عن القطيعة ، ورفض « الصراع » .. فكذلك « الاختلاف » - الذى جعله الله سنة ومظهرا للتعددية ، يقتضى رفض « التبعية » أو « الهيمنة » ، بزعم وحدة الحضارة للبشر اجمعين ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ﴾[1].. ولقد قال المفسرون لقوله تعالى : [ولـذلك خلقهم] : إن معناها : « وللاختلاف خلقهم »[2] !.. ففى الاختلاف والتمايز : التنوع ، والغنى ، والتنافس فى استباق الخيرات ..

---

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) [الجامع لأحكام القرآن] جـ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ .

وهنا .. لسائل أن يسأل : إذا كانت الرؤية الإسلامية مع التعددية الحضارية » ، كسنة من سنن الله فى تعدد الأمم التى تتمايز تمايز الحضارات .. ومع التبادل والتفاعل الحضارى فيما هو مشترك نسانى عام بينها ، امتثالا لأمر الله وحكمته أن يكون التعارف هـ رباط وسمة العلاقات بين أمم الحضارات المتعددة .. إذا كانت هذه هى رؤية الاسلام لهذه القضية ، فما الموقف إزاء علاقة « النفى والصراع » التى مارستها وتمارسها الحضارة الغربية مع وبإزاء غيرها من الحضارات والمواريث الحضارية التى وجدتها لدى الأمم التى اتصلت بها أو غزت بلادها منذ الزحف الاستعمارى الكبير الذى شنته على العالم قبل قرنين من الزمان ؟!..

هنا ، وفى الإجابة على هذا السؤال ، لابد من التنبيه على رفض **الاسلام أن يكون « النفى والصراع » هو طابع العلاقة مع « الغير » – فالإيمان بالتعددية يقتضى الإيمان بحق الغير فى الوجود المتميز ، حتى تكون هناك تعددية حقيقية .. ولهذه الحكمة كان « التوازن » بين الفرقاء المتميزين هو مذهب الاسلام فى العلاقة بين الطبقات والجماعات داخل الأمة الواحدة ، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى .. وهذا « التوازن » يفترض ، بل ويشترط كى يقوم وجود « فرقاء » متمايزين ومختلفين .. أما « الصراع » فإنه يعنى ابتغاء « نفى » الآخر ، والانفراد والواحدية دون شريك !..**

ولأن هذه هى فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر ، كان

استخدام القرآن الكريم لمصطلح « الدفع » عندما تدعو الحاجة ، بسبب اختلال توازن العلاقات مع الأغيار ، وحلول « الخلل » محل « التوازن » وسيادة « الظلم » بدلا من « العدل » ، وقيام « الجور » بدلا من « الوسطية » .. هنا يكون « الدفع » ، أى الحركة الاجتماعية التى تبتغى إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام « التوازن » ثانية ، مع الاحتفاظ بالتعددية والتمايز للفرقاء المختلفين .. هنا يكون « الدفع » ، ولايكون « الصراع » ، لأن الصراع يقتضى نفى الآخر ، بصرعه ، وإنهاء وجوده ، والانفراد والواحدية .. فهو ضد فلسفة التعددية ، وضد شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين .. ففى « الصراع » .. ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[1] ﴾ .. أما فى « الدفع » فإن الغاية مختلفة : ﴿ إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2]..

فإذا كانت الحضارة الغربية قد تبنت واعتمدت فلسفة « الصراع » ، فرأته قانون العلاقة فى الأحياء ، صراع البقاء فى الداروينية – وفى الإجتماع – الصراع الطبقى فى الماركسية – وفى العلاقة مع الحضارات الأخرى – المسخ والنسخ والتشويه لمواريث الأمم التى أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية ... إذا كان هذا هو طابع

---

(١) الحاقة : ٧ .
(٢) فصلت : ٣٤ .

العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. **فهو كالقتال الذى فُرِض علينا – وهو كُرْهٌ لنا !**– وعسى أن تكون الثمرة ، ثمرة هذا الصراع الذى فرض علينا ، شحذ الهمة فى معركة التجديد للفكر الاسلامى ، إخراجا له من أزمته المعاصرة ، وتجديدا لواقع الأمة به ، لالننفى « الآخر الحضارى » ، وإنما لنقسره غدا ، كما قسره أسلافنا بالأمس ، على التخلى عن طموح الهيمنة الحضارية ، وعلى القبول بالتعدّدية ، ليصبح الكوكب الذى نعيش عليه « منتدى حضارات » ، تتفاعل وتتبادل العلم النافع ، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات .. مثلها كمثل الإنسان الراشد المستقل ، يصافح الجميع ، دون أن يفقد بصمته وهويته التى تميزه عن الجميع !..

إننا نرى الآن قضية علاقة « الأنا : الحضارية » بـ « الآخر : الحضارى » ، واحدة من قضايا « أزمة الفكر » الاسلامى المعاصر .. بينما هذه القضية لم تكن بالأمس – عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى ، هندية وفارسية وإغريقية .. لم تكن من قضايا « الأزمة » .. بل كانت من سمات « الصحة » ومظاهر « النهضة » ؟!.. وماكان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا من الفارق بين حالنا اليوم وحال أسلافنا بالأمس .. لقد تفاعلوا مع « الآخر الحضارى » من موقع القوى الراشد المستقل ، فكانت « لمعدتهم الحضارية » – إن جاز التعبير – القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد ، بين النافع والضار ، بين الملائم وغير الملائم فى

مواريث الآخرين .. فلم تكن فى العلاقة « قضيّة » مشكلة على الاطلاق !.. أما نحن ، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم ، الذى تحالفت عليه تحديات : التخلف الموروث .. وتحديات : الاستلاب الحضارى الوافد فى ركاب الغزاة !..

وليس كالتجديد للفكر الاسلامى بابا يدخل منه العقل المسلم إلى عالم النهضة – له ولأمته – من جديد ، فيتجاوز هذه المآزق ويحل هذه المشكلات .

• • •

- ٥ -

إنقسام العقل المسلم حول « مرجعية » المشروع الحضارى

لا يختلف « الاسلاميون » وهم الملتزمون بالإسلام فكرا وحركة حول اعتبار الإسلام هو المرجع « الضمنى والمعلن » فى المشروع الحضارى ، الذى يعملون على صياغة معالمه ، كى يكون دليل العمل للنهضة الإسلامية المنشودة .. لكن هذا الذى لا يختلف عليه « الاسلاميون » هو موضع خلاف مع قطاعات مؤثرة من « المسلمين » الذين وإن تدينوا بالاسلام . عقيدة وشعائر ، الا أنهم لايلتزمون به مرجعا للدولة وسياسة المجتمع وتنظيم شئون العمران ، فمرجعية الإسلام للمشروع الحضارى موضع خلاف ونزاع بين « الاسلاميين » وبين بعض « المسلمين »!

ولذلك ، فإن واحدة من قضايا أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، هى قضية كيفية تعامل « الإسلاميين » مع هذا النفر من المسلمين - العلمانيين - الذين يتدينون بالإسلام لكنهم يريدونه كالمسيحية ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟! ..

وبالطبع ، فإن نشأة هذا الانقسام فى العقل المسلم إلى « إسلاميين » و « علمانيين » هو امر طارىء على المسيرة التطورية للفكر الاسلامى والعقل الإسلامى ، لأنه ثمرة من الثمار المرة لهيمنة الفكر الغربى العلمانى على القطاعات النشطة والمؤثرة فى حركتنا

الفكرية ومؤسساتنا العلمية والتعليمية والإعلامية .. فلقد فرض الغزو الفكرى الغربى على قطاعات عريضة من « النخب » المثقفة فى ديار الاسلام نمط حضارته فى علاقة الدين بالدولة والاجتماع والعمران ، فتخلق فى واقعنا الفكرى قطاع «متغرب » يرى أن المرجعية فى مشروعنا النهضوى هى « للخيار الحضارى الغربى » وليس للإسلام .. فكان هذا الانقسام ، الذى يمثل واحدة من قضايا أزمة الفكر الإسلامى فى الحياة المعاصرة .

ويزيد من تعقيد هذه القضية اختلاف مواقف الإسلاميين حول تقييم مكانة العلمانيين وموقعهم والموقف منهم؟ .. وهل هم فصيل واحد ، فيكون الموقف منهم موقفا واحدا؟ .. ام انهم فصائل ، هم الآخرون كفصائل الإسلاميين؟! .. ومن ثم فلابد من تمييز فصائلهم ، والتمييز فى المواقف التى تُتَّخَذُ حيال كل فصيل ؟؟.

وإذا كان لهذه الصفحات ان تقدم لهذه القضية إشارات تسهم فى وضوح الرؤية لها ، وتسهم فى تصور الحل الذى تَراه موضوعيا .. فإنها تجمل هذه الإشارات فى عدد من النقاط :

أولاها : أن الخلاف بين الاسلاميين وأغلب العلمانيين هو خلاف فى المشروع الحضارى ، أى حول « الدولة الاسلامية ، وليس حول « العقيدة » الاسلامية .. ومن ثم فإنه خلاف فى « الفروع » .. ولذلك فإن معايير الحديث فيه

والحكم على فرقائه ومقولاتهم إنما يكون بمصطلحات « الصواب » و « الخطأ » و « النفع » و « الضرر » ، وليس بمعايير « الايمان » و « الكفر » و « الهداية » و « الضلال » .

وثانيها : ضرورة التمييز فى الحركة العلمانية ، سواء فى نشأتها الغربية أو فى امتداداتها فى بلادنا بين فصائل ثلاثة :

أ — **العلمانيون الثوريون :** وهم اصحاب النزعة المادية ، التى لا تقنع بمجرد الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة ، وإنما تطمع إلى انتزاع التدين من العقل والقلب والفكر والثقافة والمجتمع .. وخلاف الإسلاميين مع هذا الفصيل العلمانى هو خلاف فى « الأصول » ، وليس مجرد خلاف فى « الفروع » ، ومعايير تقييمه لا تقف فقط عند مضامين مصطلحات « الخطأ » و « الصواب » و « الضرر » و « النفع » ، وإنما تتعدى هذا الإطار؟! ..

ب— **العلمانيون الداعون ، بوعى ، لتبعيتنا ، فى المرجعية الحضارية ، للنموذج الغربى :** وهم الذين لا يقف اختيارهم للعلمانية ، وتبشيرهم بالخيار الحضارى الغربى عند حدود « الاجتهاد الخاطىء » وإنما يقف

وراءه كيد للإسلام وحضارته ، ودعوة للبديل الغربى باعتباره السبيل إلى إزاحة الإسلام عن طابع الحياة .

ولقد بدأ تَخَلُّق هذا الفصيل ، من فصائل العلمانية ، فى واقعنا الحديث ، بنفر من مثقفى الطائفة المارونية بالشام ، الكارهين للإسلام تبعا لكراهيتهم للدولة العثمانية ، وبفعل « العمالة الحضارية » أو السياسية التى ربطت علاقاتهم وانشطتهم بالمد الاستعمارى الغربى ، فتبلورت دعوتهم ومؤسساتهم الصحفية والفكرية فى أحضان سلطات الاستعمار .. منذ حركة وأفكار « الجنرال » يعقوب (١٧٤٥ – ١٨٠١م) إبان الحملة الفرنسية على مصر ومروراً بـ « مدرسة » مجلة « المقتطف » (١٨٧٦ – ١٩٥٢ م) وصحيفة « المقطم » (١٨٨٩ – ١٩٥٢ م) واعلامها : يعقوب صروف (١٨٥٢ – ١٩٢٧ م) وفارس نمر (١٨٥٦ – ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ – ١٩١٠ م) وشبلى شميل (١٨٦٠ – ١٩١٧ م) وسلامة موسى (١٨٨٨ – ١٩٥٨ م) ثم لويس عوض (١٩١٤ – ١٩٩٠ م) وأمثالهم من الذين انطلقوا فى تبنى الخيار العلمانى الغربى ، لا من « اجتهاد خاطىء » – ويعذر صاحبه – بل ويؤجر رغم الخطأ وإنما من « وعى » بأن هذا هو البديل للإسلام الذى يكرهون ، عندما لم تسعفهم مسيحيتهم ببديل!

• • •

وهذا الفصيل من فصائل العلمانيين ، وإن لم ينزع إلى المادية الملحدة ، فيكون الخلاف معه فى اصول الإيمان والتدين ، إلا أنه قد اختار مواقع « العملاء الحضاريين » فالخلاف معه قائم فى أصول الانتماء والهوية والمشروع الحضارى .. الأمر الذى يجعل التناقض معه تناقضا عدائيا إلى حد كبير !

جـ – دعاة فصل الدين عن الدولة من العلمانيين الوطنيين والقوميين : من المفكرين والساسة والأحزاب الذين انبهروا بنهضة الغرب عندما قارنوها بتخلف النموذج العثمانى ، الذى حسبوه هو نموذج الاسلام .. فظنوا أن استعارة النموذج الغربى فى الحضارة هو السبيل إلى نهضة الشرق كي يتحرر من الاستعمار الغربى ، ويعود إلى الإسهام فى إثراء الحضارة الغربية ، التى حسبوها عالمية وانسانية للبشرية جمعاء!

وهذا الفصيل من فصائل الحركة العلمانية ، هو الأكثر نفوذا ، والأوسع انتشارا .. وعلى الاسلاميين أن يميزوا بينه وبين الفصيلين الأولين ، مهما بدت الحدة والفجاجة والاستفزاز فى مقولات مفكريه ومثقفيه ، فكثيرون من اعلام هذا الفصيل ، يعودون – بدرجات متفاوتة – عن مقولات التغريب ، ويقتربون – بدرجات متفاوتة – من الرؤية الاسلامية لمشروع النهضة ، ومن تبنى الإسلام مرجعا للمشروع الحضارى .. فالدكتور محمد حسين هكيل باشا

(١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) تراجع عن دعوته إلى الفرعونية ، وعن دعوته إلى تبنى النموذج الحضارى الغربى ، وانتقد العلمانية بعد أن كان المدافع عنها![1] وأحمد لطفى السيد باشا (١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ -١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) راجع موقفه القديم الذى كان يرفض الجامعة الاسلامية والرابطة العربية ويسوى بينهما وبين الاستعمار![2] ومنصور فهمى باشا (١٣٠٣ - ١٣٧٨ هـ ١٨٨٦ - ١٩٥٩م) تراجع عن الافتراء الذى كتبه عن صورة المرأة بنظر الإسلام! وحتى طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) الذى حال كبرياؤه بينه وبين **نقد الذات نراه يعيد طبع سائر كتبه** إلا كتابه الذى مثل عنده قمة التغريب ، وهو كتاب (مستقبل الثقافة فى مصر)! بل أن هذا الكبرياء لم يمنعه من إعلان رأيه الجديد - والإيجابى - من الرابطة القومية العربية! . وسيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م) الذى كان فى يوم من أيام مسيرته الفكرية ، داعية لإقامة أندية للعراة فى بلادنا ، ويومها نصح الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) بالامتناع عن مهاجمته ، لعل الله أن يهديه وينفع به الدعوة الاسلامية؟! سيد قطب هذا هو الذى انتهى الى موقعه المعروف فى الدعوة والحركة الإسلامية!

---

(١) [حياة محمد] ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م و[فى منزل الوحى] ص٢٢ - ٢٦ ، ١٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٢) [قصة حياتى] طبعة كتاب الهلال - القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

تلك إشارات ونماذج تؤكد على ضرورة التمييز بين فصائل التيار العلمانى فى بلاد الإسلام ، كقضية من القضايا التى تواجه الفكر الإسلامى المعاصر ، ويحتدم حولها الجدل بين الاسلاميين ..

وثالثة الإشارات : التى نقدمها حول قضية : انقسام « العقل المسلم » حول مرجعية المشروع الحضارى .. تتعلق بالموقف من أعلام اليقظة الإسلامية الذين ارادوا استلهام ما فى الحضارة الغربية من « علم نافع » رأوه ثمرة « لأدلته » لالمنبته الجغرافى داعين إلى توظيف هذا « العلم النافع » فى مشروع نهضوى إسلامى الهوية .. وهم الأعلام الذين تفاوت لديهم نضج هذا الوعى ، لكنهم وقفوا جميعا على أرض الدعوة إلى مشروع حضارى مرجعيته الإسلام .. إن الموقف من هؤلاء الأعلام هو واحد من نقاط الخلاف بين فصائل الاسلاميين ، ومن ثم فهو من قضايا أزمة الفكر الاسلامى المعاصر .. فحول رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسى (١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ ١٨١٠ - ١٨٩٠ م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م وعبدالرحمن الكواكبى (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ومحمد إقبال (١٢٨٩ - ١٣٥٧هـ ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م) وأمثالهم يحتدم خلاف بين الإسلاميين! .

● ● ●

وإذا كان من الخطأ - بل والحرام !- إن نختزل تراثنا القديم فلا نرى فيه سوى ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وابن القيم (٦٩١ - ٧٥١هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م) فإن الخطأ - بل والحرام !- أن لانرى فى فكرنا الاسلامى المعاصر غير الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) والدكتور على سامى النشار؟! - كما يرى البعض - أو غير المودودى (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م) وسيد قطب - كما يرى آخرون؟! .

وغير هذه الفصائل التى تتقاسم التأثير بل والتمزيق للعقل المسلم! .. فهناك تيار التقليد والمحاكاة لموروثنا الإسلامى .. وهو تيار يغلب عليه التقليد والمحاكاة لثمرات عصر تراجعنا الحضارى وجمودنا الفكرى وفقرنا فى الابداع على وجه الخصوص .. الأمر الذى يجعل من « تقليده » جمودا يعجز العقل المسلم عن الخروج من « الوهدة الحضارية » ، ومن ثم « فراغا حضاريا » لابد وأن يملأه التغريب ؟!..

فالجهود التى يبذلها تيار « التقليد والمحاكاة للموروث » هى فى حقيقتها لون من « الرفض .. السلبى » للتغريب .. رفض يقف عند نصف « فضيلة الرفض »! .. فهو لا يقبل التغريب والاستلاب الحضارى .. لكنه عاجزعن تقديم الخيار الحضارى البديل والمنافس لخيار التغريب ، الأمر الذى يخدم التغريب ، عمليا ، عندما يترك الفراغ فى العقل المسلم ليملأه الخيار التغريبى .. وهو حاضر .

وبراق .. ومدعوم بكل الإمكانات! ..

هذا عن « الإشارات » لمعالم هذا الانقسام ...

******

وإذا نحن شئنا أن نكثف التعبير عن طبيعة ونتيجة هذه الأزمة الفكرية فى كلمات ، فإننا نستطيع أن نقول : إن جوهر هذه الأزمة : **هو إسراف العقل العربى والإسلامى فى المحاكاة والتقليد ، وفقره وافتقاره الى الإبداع والتجديد! ..**

● **فالقطاع الأكبر من مثقفى هذه الأمة ومفكريها ، فريسة « للإنقسام الحاد » .. وليس « التنوع »** .. حول : هوية النفس العربية .. أهى إسلامية؟ .. أم غربية؟؟ . أهى ماضوية تراثية؟ .. أم ماضوية ومعاصرة ؟؟.. أم أن « الحداثة » - التى تقطع الصلات بالموروث - هى مذهبها وطريقها ؟؟..

وحتى بين التراثيين الماضويين ، هناك الانقسام الحاد حول : أى ماض وأى سلف ننطلق من ميراثه ونسترشد بآثاره؟ .. أهو سلف عصر الازدهار ؟ .. أم سلف عصر التراجع والجمود؟؟ .. بل إن معايير الازدهار والتراجع هى الأخرى موضع خلاف حاد بين التراثيين الماضويين؟! .. أضف إلى ذلك خلافهم حول دورالعقل ومقامه فى التعامل مع الموروث! ..

وليس أهل المعاصرة والحداثة بأحسن حالا فى هذا الموضوع .. فإذا كانوا قد اتخذوا الحضارة الغربية قبلتهم التى إليها يتوجهون ،

ومنبعهم الذى منه يغترفون .. فإن منهم من جعل « الشمولية المادية » سَلَفَهُ الذى يحتذيه .. ومنهم من جعل « الليبرالية الرأسمالية » المثال الذى يبتغيه ، فتوزعتهم ، هم الآخرون ، مدارس الغرب وتياراته ومذاهبه الفكرية والاجتماعية .

بل إن هناك نحوا آخر من الخلاف قام ويقوم حول فهم معنى « المعاصرة » .. فعلى حين يفهمها البعض على أنها النموذج الحضارى الغربى.. يراها آخرون : التعامل مع العصر ، حتى ولو أثمر خيارا حضاريا متميزا عن النموذج الغربى! ..

هكذا .. وعلى هذا النحو ، يعانى القطاع الأكبر من مثقفى هذه الأمة ومفكريها من هذا « **الانقسام الحاد** » فى « **الأصول .. والمنطلقات .. والمقاصد والغايات » وليس من مجرد « التنوع » فى السبل والمناهج والفروع ..**

● ويزيد من مخاطر هذا الانقسام : تكافؤ – أو تقارب – قوى وأمكانات التيارات الرئيسية التى تتنازع هذه المواقف والمنطلقات والمقاصد والتوجهات – وخاصة تيارى التقليد لماضينا وسلفنا ، ولماضى وسلف ونموذج الحضارة الغربية – الأمر الذى حال ، حتى الآن ، دون حسم الجدل والاختلاف حول طبيعة « هوية النفس العربية » ، وطبيعة « مذهبية ثقافتها » ..

فهذا التكافؤ – أو التقارب – بين تيار التقليد والمحاكاة للسلف – وهو الذى يجتذب وجدان العامة وافئدة الجمهور ..

وبين تيار التقليد والمحاكاة للغرب .. وهو الذى يهيمن على القطاعات المؤثرة ومراكز التوجيه فى العلم والتعليم والتثقيف والإعلام .. هذا التكافؤ .. أو التقارب بين « تيارى المحاكاة والتقليد »؟! مع ضعف تيار الإبداع والتجديد – هو الذى جعل الأمة ، ويجعلها تستنفد أغلب طاقاتها الثقافية والفكرية فى هذا « الصراع الداخلى » ، على النحو الذى جعل بأسها بينها شديدا .. فاستنزفت أغلب هذه الطاقات فى « الصراع » لا فى « الابداع » .. يهدم تيار ما يبنيه الآخر ، ويقتلع هذا ما يغرسه ذاك .. فكأنهما يمارسان « لعبة شد الحبل » ، فوقف فعلهما معا – بسبب تكافؤ الطاقات – عند نقطة « الصفر » لا يتعداها؟! ..

لقد تحصنت هذه التيارات بالتقليد ، لا بالتجديد . التقليد للتخلف الموروث أحيانا وللوافد غير الملائم أحيانا أخرى . الأمر الذى أفضى إلى انتشار أخطر أمراض أزمة الفكر الاسلامى .. مرض : الفقر فى الابداع والتجديد ، والإخلاد إلى المحاكاة والتقليد .. وهل هناك أزمة فكرية أسوأ وأشد من توقف عقل الأمة عن الإضافة الخلاقة ، ووقوفه عند الاعتاب مستفتيا؟! .. يستفتى أمواتنا الحلول لمشكلات « الاحياء »! .. أو يستفتى « الآخر الحضارى » الحلول لمشكلات « الذات »!!

ذلك هو « الشلل » الذى يعبر عن جوهر أزمة الفكر الإسلامى ، كما يراه كاتب هذه الصفحات ..

******

لكن ....

إذا استطاعت هذه السطور التى سبقت « الإشارة » إلى جوهر الأزمة ، فإن المقام لا يستغنى عن « تفصيل » مناسب للإطار يلقى الضوء على معالم ومواقع هذه التيارات التى تتقاسم التعبير عن ثقافتنا وفكرنا والتأثير فى عقل الأمة ووجدانها .. ففى ذلك بيان لأبعاد الأزمة وحجمها ، وفيه ، كذلك ، إشارات إلى طريق الخروج منها ، والانعتاق من مأزقها ..

وإذا كانت هذه ، التيارات الفكرية والثقافية قد تمثلت – إجمالا – فى :

- تيار التقليد للموروث ..
- وتيار التقليد للوافد الغربى ..
- وتيار الإحياء والتجديد ...

فإن المقام يقتضى حديثا يوجز ويكثف معالم كل تيار من هذه التيارات ..

١ – تيار التقليد والمحاكاة للموروث :

منطلقات هذا التيار ومنابعه : هى فكر أسلافنا ، الذى تبلور فى عصور التراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد! .. فأهله ومؤسساته لا يعرفون كثيرا عن حقيقة المنابع الجوهرية والنقية لفكر الحضارة الاسلامية ، ولا يهتمون كثيرا بإبداع عصر الازدهار

لهذه الحضارة .. وأغلب زادهم الفكرى هو ابن لقرون التراجع والجمود المملوكية العثمانية ..

وإذا كان هذا التيار قد ضم فصائل ثلاث :

أ - **مؤسسات العلم والتعليم الموروثة** .. مثل الأزهر ، وما ماثله وشابهه من المدارس والجامعات ..

ب- **والطرق الصوفية** .. وتنظيماتها ، ومشيخاتها المتعددة ..

جـ - **والنصوصيون** .. الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها ، عازلين إياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص .

إذا كانت تلك هى أبرز فصائل هذا التيار .. فإننا نعرف له فضل الحفاظ على تراثنا ، وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربى الذى أراد اقتلاعه والحلول فى مواقعه ، الأمر الذى حفظ للأمة ولثقافتها التواصل مع ماضيها الحضارى ، ومكن لحركات الإحياء والتجديد من مادة ومنطلق هذا الإحياء والتجديد ..

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار ..

لكن هذا التيار ، الذى جفل من « الوافد الغربى » فانكفأ على « الذات » . قد ظل عاجزا عن صياغة الخيار الحضارى والنموذج التجديدى القادر على منافسة النموذج الغربى .. لا لقصور طبيعى فى عقول أعلام هذا التيار ، وإنما لعيب فى بضاعتهم الفكرية .. فلقد كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضارى .. أى أنها كانت عرضا من

أعراض مرض التخلف الحضارى الذى أصاب هذه الأمة ، فأنّى لها أن تكون سبيلا ومادة للنهضة والإحياء؟!

لقد تأملت – وأنا الذى درست فى الأزهر – وتساءلتُ : لماذا كانت أغلب الكتب التى ندرسها مؤلفة فى عصر التراجع وليس فى عصر الابداع الحضارى لأمتنا؟!

وفى ضوء هذا التأمل ، وهذا التساؤل ، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ – ١٣٢٣ هـ – ١٨٤٩ – ١٩٠٥ م) التى يقول فيها عن الأزهر وأبنائه فى عصره : « **إنهم لا يتعلمون » فى الأزهر ، إلا بعض المسائل الفقهية وطرفا من العقائد ، على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها! وجل معلوماتهم : تلك الزوائد التى عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ، ولا يُرجى نفعها .. فهم أقرب للتأثر بالأوهام ، والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم! .. فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية! .. »**[١]

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة ، عندما سلكت طريق التطور ، أخذت « بشكل » التجديد ، لا بجوهره ، فاقتربت – فى أحيان كثيرة – من « التغريب » أكثر من اقترابها من المنابع الجوهرية والنقية للفكر الذى أبدع وميز حضارة الإسلام ! ..

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) جـ ٣ ص ١١٢ – ١١٤ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

أما المؤسسات الصوفية ، فإنها - باستثناء القلة القليلة التى رحم ربى - قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف ، كسبيل لتهذيب النفس ، ورافد يزامل العقل فى اقامة التوازن بثقافة الانسان ..

وإذا كان التيار النصوصى الحديث ، قد نفض عن عقائد الدين كثيرا من البدع ، وعن تصورات العامة كثيرا من الخرافات ، فإن جموده عند حرفية ظواهر النصوص قد أورثه العجز عن إبداع المشروع الحضارى الذى يصوغ الانسان المقاوم للزحف الغربى .. لقد أضاف هذا التيار النصوصى حصنا جديدا منيعا إلى حصون « الرافضين للتغريب » ، والممتنعين عن الاستلاب الحضارى .. لكن عجزهم عن ابداع البديل المعاصر ، القادر على منافسة النموذج الغربى والانتصار عليه ، قد هيأ ذلك « الفراغ » الذى تقدم التغريب لملئه واحتلاله ، ان فى عقول « النخبة » التى تغربت ، أو فى واقع الأمة الذى أصبح محكوما بقوانين وفلسفات التغريب! ..

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده ، التى وصفت الحالة الفكرية لأبناء الأزهر - على عهده - فإن له عبارة تصف هذا الفصيل النصوصى من فصائل تيار التقليد الموروث يقول فيها عن أهله : إنهم « أضيق عَطَنًا[1] وأحرج صدرا من المقلدين! فهم ، وان أنكروا كثيرا من البدع ، ونحّوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه ،

---

(١) اى صدراً وافقاً .

وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، دون التفات الى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية أحباء! »[1]

تلك هى ابرز فصائل هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للموروث .. الذى كان له فضل الحفاظ على « الذات الفكرية » ، لكنه انكفأ على هذه « الذات » .. فكانت – فى أغلبها – « ذات » عصر التراجع الحضارى، الأمر الذى أعجزه عن منافسة النموذج الغربى .. نموذج فكر عصر الإحياء والثورة الصناعية فى أوربا ، ذلك الذى جاء إلى بلادنا فى ركاب جحافل الاستعمار الغربى الحديث ..

لقد تحصن هذا التيار بالماضى ، ومن ورائه أفئدة العامة والجمهور ، فترك الحاضر وعقول النخبة التى صنعها الاستعمار فى مؤسساته الفكرية ، ووفق مناهجه الوضعية .. ترك كل ذلك فراغا للاستلاب الحضارى والتغريب .

٢ – تيار المحاكاة والتقليد للوافد الغربى – (التغريب) –

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية عليها (١٢١٣هـ ١٧٩٨ م) فكانت بدايات فكرة الاستقلال عن الموروث ، وقطع حبال التواصل الحضارى .. والاستقلال عن

---

(١) المصدر السابق . جـ ٣ ص ٣١٤ .

المحيط ، العربى الاسلامى .. واستبدال النموذج الغربى بدلا من المنابع الحضارية الاسلامية .. والوطنية القطرية بدلا من الجامعة الإسلامية ..

ولقد صاغ هذا المشروع - لاستقلال مصر عن منابعها وعن محيطها .. « المعلم يعقوب » (١٧٤٥ - ١٨٠١ م) وكان رجلا من أراذل القبط ، التحق بجيش بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) وأصبح جنرالا فيه؟! . واستخدمه الفرنسيون جلادا للمصريين .. حتى لقد تبرأت منه الكنيسة المصرية ، وسماه الجبرتى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) : « يعقوب اللعين »؟![1] .

وإذا كان هذا المشروع قد قبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر (١٢١٦ هـ - ١٨٠١ م) ، ومعها « المعلم يعقوب » .. فلقد عاد مشروع « الإلحاق الحضارى » ، بعد احتلال الانجليز لمصر (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢ م) . عاد هذه المرة لتبشر به مؤسسات فكرية ومنابر ثقافية ، وأجهزة اعلامية ، قامت ومارست عملها بمصر ، فى رعاية سلطات الاحتلال الانجليزى ، التى كان يقودها يومئذ اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة فى الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم! .

---

(١) د . محمد عمارة (جمال الدين الأفغانى المفترى عليه) ص ١٠ - ١٤ طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٨٤ .

ولقد كان رواد « مشروع الإلحاق الحضارى » هذا – فى هذا الطور من أطواره – مجموعة من المثقفين الموارنة الشوام ، الذين هاجروا إلى مصر فراراً من السلطة العثمانية ، والذين كانت تحركهم كراهية شديدة للدولة العثمانية . وبغض دفين للإسلام .. ولما كانوا أبناء أقلية دينية لا تملك نمطا للدولة والقانون والعمران ، مماثل أو مغاير لما لدى الاسلام – فمسيحيتهم رسالة روحية خالصة لمملكة السماء ، تدع مالقيصر لقيص وما لله لله – فلقد رأوا أن البديل المرشح لإزاحة الاسلام عن أن يكون صبغة النهضة للأمة ،هو بديل التغريب .. فوظفوا طاقاتهم والمؤسسات التى أقاموها بمصر لخدمة هذا المشروع .. مشروع التبشير بالنموذج الغربى نمطا لنهضة الشرق وتقدمه ، بدلا من النموذج الاسلامى – الذى أهالوا عليه كل سوءات وسيئات العثمانيين؟! .

• • •

وفى ضوء هذه الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة صحيفة « المقطم » (١٣٠٦ – ١٣٧١ هـ ١٨٨٩ – ١٩٥٢ م) ومجلة « المقتطف » (١٢٩٣ – ١٣٧١ هـ – ١٨٧٦ – ١٩٥٢ م) .. وأن نعى دلالات وتأثيرات الفكر الغربى الذى بشر به واشاعه أقطاب وأعلام هذه المدرسة وهذا التيار .. من مثل : يعقوب صروف (١٢٦٨ – ١٣٤٥ – ١٨٥٢ – ١٩٢٧ م) .. وفارس نمر (١٢٧٢ – ١٣٧٠ ١٨٥٦ – ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوس

(١٢٦٩ - ١٣٢٨هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠ م) .. وشبلي شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧ م) .. ونقولا حداد (١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م) .. وجورجي زيدان (١٢٧٧ - ١٣٣٢هـ ١٨٦١ - ١٩١٤ م) .. وفرح انطون (١٢٩١ - ١٣٤٠هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢ م) .. وبشارة تقلا (١٢٦٥ - ١٣٠٩هـ ١٨٤٩ - ١٨٩٢ م) .. وسليم تقلا (١٢٦٨ - ١٣١٩هـ ١٨٥٢ - ١٩٠١ م) وأمثالهم، فمن خلال هذه المؤسسات والمنابر ، التى رعاها الاستعمار ، تسربت عناصر المشروع الغربى ، كبديل للمشروع الاسلامى ، وتسربت « الثقافة الغربية » - وليس « حقائق العلم الغربى » - لتحل محل الثقافة العربية الإسلامية ، مستفيدين من الفراغ الذى نشأ من عجز تيار التقليد والمحاكاة للموروث ..

وإذا شئنا كلمات معبرة - بصراحة عارية - عن مقاصد هذا التيار ، فإننا نختار كلمات سلامة موسى (١٣٠٥ - ١٣٧٧هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م) وهو الذى مكنته « مواطنته » المصرية من أجل أن يكون صريحا؟! والتى يقول فيها عن ما يريده هذا التيار للشرق وأهله : « **إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن فى حاجة الى ثقافة حرة أبعد ماتكون عن الأديان .. وحكومة ديمقراطية برلمانية ، كما هى فى أوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول**

أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أوتوقراطية دينية .. إننى ، كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى :

يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوربا ، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى ، وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها ، وهذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى ، سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب »[1]؟؟!! ..

ولم يكن هذا التيار « الكافر بالشرق ، المؤمن بالغرب » غافلا عن مكان العربية — كلغة قومية ، وكلسان للإسلام — فى السمات والقسمات التى تميز الحضارة الاسلامية عن الحضارة الغربية .. ولذلك وجدنا « الوعاء اللغوى » — العربية — مثله كمثل « المضمون الفكرى » .. الاسلام ، هدفا لسهام هذا التيار ..

فوجدنا سلامة موسى الذى رأى فى « الرابطة الشرقية سخافة » وفى « الرابطة الدينية وقاحة » .. ودعا إلى « الخروج من آسيا » — و « آسيا » هو التعبير الاستشراقى عن « الاسلام »؟! .. وأعلن

---

(١) سلامة موسى (اليوم والغد) طبعة القاهرة ١٩٢٧ م . والنص فى : دكتور محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) جـ ٢ ص ٢١٢ — ٢١٥ طبعة القاهرة ١٩٨٠ .

« كفره بالشرق » و « إيمانه بالغرب »!! رأيناه يدعو إلى « لغة عامية » تكتب « بالحرف اللاتينى » لتنقطع صلات الأمة – وهى مصر فقط بنظره – مع ثرائها العربى الاسلامى ومع محيطها العربى الاسلامى .. رأيناه يدعو إلى « اصطناع العامية لغة أدب ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، لأن هذه الكتابة تضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدّنة ، وتكسبنا عقلية المتمدنين . فالمتعمق فى اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد .. فنظره متجه ابدا نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، مع أننا فى كثير من الأحيان نحتاج الى الاتجاه نحو الغرب ، والثقافة تفرز الذوق والنزعة . وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق ..»

ثم يكشف سلامة موسى القناع عن أن العداء « للوعاء اللغوى » – العربية – إنما هو فرع عن العداء « للمحتوى الفكرى » .. – الاسلام – الذى يحتويه هذا الوعاء .. فيقول عن تراث العربية .. إنه « تراث لغوى يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها! .. فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون ، بل لغة القرآن وتقاليد العرب .. »؟؟!![1]

(١) سلامة موسى (البلاغة العصرية واللغة العربية) طبعة – القاهرة ١٩٤٥ م – والنص فى بحث للأستاذ على عقلة عرسان ، عن « الفصحى والعامية والحوار المسرحى » ص ٩ – طبعة المهرجان الوطنى للتراث والثقافة – الرياض ١٤١٠هـ ١٩٩٠ م

فالإلتحاق بالغرب ، حضاريا ، والكفران بالحضارة الشرقية .. وبلغتها العربية .. وبتراث هذه اللغة لغة القرآن .. الحاملة « لعقيدة إجتماعية » يجب أن نحاربها » بتعبير سلامة موسى – وتبنى الحرف اللاتينى ، حرف كتابة للغة عامية ، تقطع روابط أمة الاسلام إلى أقاليم يلتحق كل منها بالغرب الحضارى .. وتبنى المضامين الحضارية الغربية بدلا من المضامين الاسلامية .. هى جماع معالم المشروع الذى بشّر به هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للغرب ، الذى اختار هذا الطريق عامدا متعمدا ، وبوعى بمعالم هذا الطريق ، وبنتائجه ومقاصده ، لأن أعلامه كانوا كارهين للإسلام كخيار حضارى لنهضة الشرق والعرب والمسلمين ..

وإذا كانت « مدرسة المقطم » و « مدرسة المقتطف » – وهما جناحان لتيار واحد – قد عبرا عن « التغريب – الليبرالى » فإن السنوات التى أعقبت قيام الثورة البلشفية فى روسيا (١٣٣٦هـ – ١٩١٧ م) قد شهدت بدايات تيار « التغريب – الشمولى » على يد طلائع « اليهود – الصهاينة – الماركسيين » .. فعرف هذا التيار ، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من مثل : « روزنتال » .. و « مارسيل إسرائيل » .. و « هنرى كورييل » .. و « أوديت » .. و « إيزاك اسرائيل »؟! و « وشوارتز » و « ريمون دويك » وأشباههم من شذاذ الآفاق ، الذين انضموا إلى متغربى الموارنة ، مؤملين تحويل المسار الحضارى للأمة عن التوجه إلى رسالة نبيها محمد بن عبد الله ، ﷺ .. وحالمين

بمنافسة أعلامها المحدثين .. من مثل جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) ورشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) وعبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) وسعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) وحسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) .. وغيرهم من الأبناء البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها ..

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضارى ، الذى بشر بثقافة الغرب اداة لإزاحة تميز الثقافة العربية الإسلامية .. والذى دعا إلى تبنى النموذج الحضارى الغربى ، بخيره وبشره ، بحلوه ومره ، زاعما أن العقل الشرقى كان ولايزال عقلا يونانيا ، حتى بعد أن تدين أهله بدين الإسلام؟!

ولقد كان الهدف - الذى أعلنه سلامة موسى - لهذا التيار هو إخراج الأمة من « آسيا » أى من الاسلام وحضارته؟! .. وإلحاقها بالغرب ، حضاريا .. وهو ذات الهدف الذى وضع بذرته الأولى « يعقوب اللعين »؟!

● ● ●

٣ - تيار الإحياء والتجديد :

فى تيار الإحياء والتجديد لثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامى - وهو تيار عريض - وبه هو الآخر فصائل متمايزة ، إن فى ميادين اهتماماتها : أو فى حظها من التجديد ، أو فى مقاييس التجديد لديها - فى هذ التيار ، نستطيع ان نرصد أسماء عشرات من العلماء الأعلام .. لكننا نشير إلى بعض من أبرز قادة هذا التيار .. من مثل : رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسى (١٢٢٥ - ١٣٠٨ء ١٨١٠ - ١٨٩٠ م) وجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) والإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) وعبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) وعبد الرحمن الكواكبى (١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) وحسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م) ومصطفى كامل باشا (١٢٩١ - ١٣٢٦هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) وطلعت حرب (١٢٩٣ - ١٣٦٠هـ ١٨٧٦ - ١٩٤١ م) وسعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م) ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) ومحمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥ م) وعبد العزيز

جاويش (١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ ١٨٧٦ - ١٩٢٩ م) وأحمد حسن الزيات (١٣٠٢ - ١٣٨٨ هـ ١٨٨٥ - ١٩٦٨ م) وعبد الجليل (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ ١٨٩١ - ١٩٧٨ م) وعبد الوهاب خلاف (١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) ومحمد حسين هيكل (١٣٠٥ - ١٣٧٥ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) وعباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ ١٨٩٩ - ١٩٦٤ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م) ومحمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ - ١٩٧٠ م) وعلال الفاسى (١٣٢٦ - ١٣٩٤هـ ١٩٠٨ - ١٩٧٤ م) وعلى مبارك (١٢٣٩ - ١٣١١هـ ١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) وقاسم امين (١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ ١٨٦٣ - ١٩٠٨ م) وزكى مبارك (١٣٠٨ - ١٣٧١هـ ١٨٩١ - ١٩٥٢ م) وشكيب أرسلان (١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م) و غيرهم .. وغيرهم من أعلام هذا التيار ...

وإذا كان تراث حقبة الجمود والتراجع فى حضارتنا العربية الاسلامية ، قد كان بضاعة تيار التقليد للموروث .. وإذا كان النموذج الحضارى الغربى قد مثل منابع ومنطلقات تيار التغريب .. فإن المنابع التى انطلق منها تيار الإحياء والتجديد قد تمثلت فى :

- مبادىء الإسلام ، كما تمثلت فى منابعه الجوهرية والنقية : البلاغ القرآنى ، والبيان النبوى للقرآن الكريم ، كما تمثل فى السنة النبوية الثابتة .

- وثوابت التراث العربى الاسلامى ، التى مثلت قسمات الهوية الحضارية للأمة ، والتى حفظت لأجيالها تواصلها الحضارى ووحدتها كأمة ، عبر الزمان والمكان .

- وكل ما أبدعه العقل الإنسانى ، فى مختلف الحضارات ، مما هو « إبن الدليل » كما تمثل فى الحقائق والقوانين التى مثلت وتمثل العلوم التى لا تتغاير موضوعاتها بتغاير الحضارات والمعتقدات .. أى العلوم الموضوعية المحايدة ، التى هى « مشترك إنسانى عام » متميز عن « العلوم الانسانية » .. ومنها الثقافة .. التى تدخل فى الخصوصيات التى تتمايز فيها الحضارات ..

تلك كانت المنابع الفكرية لتيار الإحياء والتجديد ..

وإذا نحن شئنا أن تكون إشاراتنا لأهم الملامح الفكرية لمشروع الإحياء والتجديد الذى صاغه هذا التيار ، وبَشَّر به ، ودعا إليه .. وإذا شئنا أن تكون إشاراتنا هذه موثقة وصادقة فى التعبير عن حقيقة ملامح هذا المشروع .. فإننا نستطيع أن نتحدث بلسان أعلامه ، فنقول إنهم **قد أرادوا مشروعاً تجديديا لا يقيم قطيعة مع التراث ، وإنما يتجاوز المتخلّف منه ، ذلك الذى تجاوزه التطور .. ولايقيم قطيعة مع الحضارات الآخرى ، وإنما يميز فى عطائها بين « المشترك الإنسانى العام » وبين « الخصوصيات » التى تتميز بها تلك الحضارات .. ولا يدير ظهره للواقع ـ حاضرا ومستقبلا ـ فيهجره**

إلى الماضى – كما فعل تيار التقليد للموروث – أو إلى « الآخر الحضارى » – كما فعل تيار التغريب – وإنما أراد هذا التيار استلهام الموروث ، والاستعانة بالوافد الملائم ، كمنطلقات لإبداع جديد للواقع العربى الاسلامى الجديد .. فالإبداع هو الهدف والأساس والسبيل إلى الإحياء والتجديد ، فى مذهب أعلام هذا التيار ..

● وإذا كان الإمام محمد عبده – وهو المهندس الأعظم لفكر هذا التيار – قد حدد أهدافه العامة .. فإننا واجدوها : الإحياء والتجديد فى ثلاثة ميادين :

« **الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة** ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى . وأنه – أى الدين على هذا الوجه – يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل – كل هذا أعده أمرا واحداً – ..

أما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجما من لغات أخرى ، أو فى المراسلات بين الناس ..

أما الأمر الثالث : فهو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. فالحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل ... »

وإذا كان الامام محمد عبده قد حدد ، فى هذه الكلمات ، ميادين الإحياء والتجديد .. فإنه قد نبه على تميز هذا التيار ، عندما استطرد فقال : ولقد خالفنا فى الدعوة إلى ذلك « رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

أ – طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ..
ب – وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو فى ناحيتهم .. » (١)

تلك هى ميادين الإحياء التى عمل فيها تيار التجديد ، المتميز عن تيارى التقليد والتغريب .. وإذا كانت قد سبقت إشارتنا إلى نقد الامام محمد عبده لجناحى تيار التقليد للموروث – أبناء المؤسّسات التعليمية الموروثة .. والنصوصيين – فإن الأفغانى يؤكد تمييز هذا التيار عن تيار التغريب ، بحديثه عن الموقف من « علوم » الغرب ، ومن « ثقافة » الغرب ، وذلك عندما يعرض لما صنعه العثمانيون والمصريون فى « التحديث على النمط الغربى » ! .. فيقول : « لقد شيد العثمانيون

---

(١) [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانسانى !..

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟!..

نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدقون بألفاظ « الحرية » و« الوطنية » و« الجنسية » وما شاكلها .. وسموا أنفسهم : « زعماء الحرية » .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات ، المآكل والملابس والفرش والآنية ، وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم !.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جَدْعٌ لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها !

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ؟!..

إن أبا العلم وأمه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ، ولا جاليليو بالذات .. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل ...

وإن الظهور فى مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولا ضرورة فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجىء للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا[1] أعجزها وأعوزها ! .. »[2] .

● ويزيد مصطفى كامل باشا موقف هذا التيار من « الهوية » الحضارية وضوحا وتحديدا ، عندما يحدد علاقة « الوطنية » بـ « الجامعة الإسلامية » وعلاقة حضارتنا بالحضارة الغربية .. فيقول : « إننا نريد ان تكون مصر للمصريين ، ونرفض قطعيا كل نير أجنبى ..

وإذا كنا نطلب إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات ، التى راجت بين العامة ، باسم الدين ، قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهل والتأخر والانحطاط ، وكل الآفات ، مما يلقى على الدين وينسب إليه ، والدين منه براء . **لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل إلى إبادة جيش الباطل ، الذى أُلّف ونُظم باسم**

---

(١) أى أذلها وصدعها ..

(٢) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٥٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

الدين ، إلا بالدين نفسه . فالتعليم الديني ليس فرضا من الوجهة الدينية « فحسب ، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية .

إن بث الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نُفْرةَ مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته ، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم ...

ونحن إذا اعتمدنا على الاسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .. [1] »

فتقليد الغرب شيء .. والأخذ من المدنية الغربية الفوائد والمنافع شيء آخر .. و« إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية مستحيل ... »

● ويزيد الإمام محمد عبده هذه الحقيقة .. حقيقة ضرورة « إسلامية النهضة والإحياء والإصلاح » .. ويزيدها حسما وتأكيداً ، عندما يقول : « **إن الدين هو سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين**

(١) مصطفى كامل : فقرات من خطبة فى الاسكندرية فى ٣ مارس سنة ١٨٩٦ م .. وخطبة فى الاسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م .. وخطبة فى ذكرى تنصيب محمد على باشا حاكما على مصر ــ فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م . ــ انظر كتابنا [الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] ص ٨٧ ، ٩٥ ــ ٩٧ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صيغة الدين يحوج المصلح إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا ..

وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله الثقة فيه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إلمام به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟!.. » (١)

● لكن محورية الإسلام فى النهضة والإصلاح لدى هذا التيار - تيار الإحياء والتجديد - قد جاءت موقفا متميزا عن موقف المقلدين للموروث ، أولئك الذين وقفوا عند تراث عصور التراجع والتخلف الحضارى .. وعن موقف النصوصيين ، أولئك الذين وإن كانوا قد طهروا العقائد من البدع والخرافات ، إلا أن جمودهم عند حرفية النص قد جعلهم يهملون إعمال العقل فى الوعى بمرامى النصوص وملابساتها ، ومقاصد الشريعة وحِكَمِها وغاياتها ..

ففى منهج تيار الإحياء والتجديد نجد « العقل : هو جوهر إنسانية الإنسان .. وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة (٢) .. وهو نقطة الافتراق التى ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات .. والتى جعلها الله محور صلاحه وفلاحه .. » (٣)

---

(١) [الأعمال الكاملة] ج د ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق . ج ٥ ص ٤٢٨ ، ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

وإذا كانت « الحكمة » : ثمرة من ثمرات العقل ، لأنها هى الإصابة فى غير النبوة .. فإنها – أى الحكمة – فى منهج هذا التيار : « هى مقننة القوانين ، وموضحة السبل ، وواضعة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والرذائل ، وبالجملة ، فهى : **قوام الكمالات العقلية والخلقية .. فهى أشرف الصناعات !..** »[1]

● وليس مقام العقل هذا – فى منهج هذا التيار – خاصا بالعمران الدنيوى وحده .. بل إن هذا هو مقامه وتلك هى مكانته فى تحصيل الايمان الدينى أيضا ؟! .. فإذا كان العقل هو أداة النظر والتدبر والتفكر .. وإذا كان الايمان هو التصديق القلبى الذى يبلغ مرتبة اليقين ، فإنه « **لا يقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان ، طولها وعرضها ، وحتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد .. فالله يخاطب ، فى كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولاحد .. والوقوف عند حد فهم العبارة مضرّ بنا ، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات ..**

والقرآن – وهو وحده المعجز الخارق – قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم .. فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى أثنائها .. فالإسلام لا يعتمد على شىء سوى الدليل العقلى ، والفكر

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٦٠ .

الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى ، فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية ...

والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به .. فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحا ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه : أن يرتقى عقله ، وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته فى دينه ودنياه !.. » (١)

● وفى الوقت الذى استعار فيه تيار التغريب مفهوم « الوطنية » الضيقة ، المناقض لوحدة الأمة الاسلامية ، ووحدة ديار الإسلام .. وجاهر أعلام هذا التيار - بلسان أحمد لطفى السيد باشا [١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م] - بأن « **الجامعة الاسلامية خرافة .. لا أثر لها ولا وجود .. وأن القول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين : قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع املاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من**

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ١٥١ ، ٢٧٩ - ٢٨١ ، ج ٤ ص ٤١٤ .

البلاد .. وأن المصرى : هو الذى لا يعرف له وطنا غير مصر .. » !!.. (١)

وهو المفهوم الذى يبرر التجزئة الاستعمارية الغربية لوطن العروبة وعالم الاسلام ... فإن تيار الإحياء والتجديد — الذى بعث الوطنية — كدائرة انتماء — على يدى مصطفى كامل باشا — قد نبه على خطر هذا المفهوم الغربى والضيق للوطنية ، خطره على وحدة الأمة الإسلامية .. فكتب الإمام محمد عبده يقول : « لقد انحلت الروابط الملية ، بل تقطع أكثرها ، حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الأعمال المشتركة التى تحفظ وحدتها . **وطفق بعض هؤلاء « المتمدنين » الذين قطعوا روابطهم بأيديهم يفكرون فى جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلا من الرابطة الملية الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة ، فلم يفلحوا ، ولكن أثّر كلامهم أردأ التأثير !.. »** (٢)

● وبينما رأى تيار التغريب — بسبب التقليد لمناهج الغرب — فى إسلامنا : مسيحية ، تدع مالقيصر لقيصر ، وما لله لله .. وفى الخلافة الإسلامية : دولة الكهانة التى استبدت باسم السماء والتفويض الالهى والسلطة الدينية .. نبّه تيار الإحياء والتجديد على تميز الإسلام فى هذا

---

(١) أحمد لطفى السيد [قصة حياتى] ص ٦٧ ، ٧٠ ، ١٣٤ ، ١٣٣ . طبعة القاهرة — دار الهلال — سنة ١٩٨٢ م .

(٢) [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٦٨٣ .

الميدان .. ميدان علاقة الدين بالدولة .. « **فليس فى الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة .. وهى سلطة خولها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم .. وليس للخليفة ، أو القاضى ، أو المفتى ، أو شيخ الاسلام أية سلطة دينية .. بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية ! .. فليس فى الاسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه ...** » [1]

لكن رفض الاسلام هذا للسلطة الدينية ، ليس هو موقف المسيحية التى تقف عند حدود الرسالة الروحية ، وخلاص النفوس ، ومملكة السماء .. وليس العلمانية الغربية التى تفصل الدين وتعزل أحكامه عن الدولة والعمران وعلومهما وشئونهما .. لأن الإسلام دين ودولة .. بلاغ وتنفيذ .. وبعبارة الإمام محمد عبده ، أيضا : « **فإن الاسلام : دين وشرع ، فقد وضع حدودا ، ورسم حقوقا .. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير ، فلابد أن تكون فى واحد ، وهو السلطان أو الخليفة ... وليس من أصول الإسلام أن يدع مالقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على مالهُ ، ويأخذ على يده وعمله .. فكان الدين بذلك عند**

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

أهله : كمالاً للشخص ، وأُلْفَةً فى البيت ، ونظاما للملك .. » [١]

فنحن هنا ، فى فكر هذا التيار ، أمام مشروع للإحياء والنهضة والتجديد ، يدعو أعلامه إلى : « سلفية – عقلانية – مستنيرة » فى فهم الدين ، على النحو الذى فهمه منه « الجيل المؤسس » – جيل الصحابة والتابعين – قبل ظهور الخلاف الذى افتعلته المؤثرات الأجنبية ..

● وإلى « عقلانية – إسلامية » متميزة عن عقلانية الغرب – اليونانية .. والحديثة – .. عقلانية تقرأ النقل فى ضوء العقل ، وتضبط االعقل بالنقل فيما لايستقل بإدراكه .. وتؤسس الإيمان الدينى على النظر العقلى ، فتنقذ الإنسان من النصوصية التى لا عقل لأهلها .. ومن الوضعية التى لاتؤمن إلا بثمرات الحواس والمحسوس ..

● وإلى تأسيس النهضة على الاسلام .. وعلى ثمرات إبداع الحضارات الأخرى فيما هو مشترك إنسانى عام ، فى ميادين العلوم التى حقائقها وقوانينها موضوعية محايدة ، لا تتأثر بتغاير العقائد والحضارات ، لأنها ابنة الدليل ، تلتمس حيث يوجد الدليل ..

---

(١) المصدر السابق . ج ٣ ص ٢٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

● وإلى بعث الروح الوطنية ، والروابط القومية ، كلبنات ودوائر انتماء فى البناء الأعم والأشمل ، الذى هو وحدة الأمة والملة فى المصالح والحضارة والاعتقاد ..

● وإلى شمولية الإسلام - بالوسطية - لمختلف جوانب الحياة الانسانية والعمران البشرى .. الدين والدولة .. الفرد والطبقة والأمة .. الوطنية والقومية والجامعة الاسلامية والانسانية .. الروح والجسد .. الدنيا والآخرة .. الخ .. الخ .. على النحو الذى يعصم نهضة الأمة ومشروعها الحضارى من الانشطارية والثنائية التى مزقت وتمزق العقل الغربى حيال هذه الثنائيات ..

● ● ●

تلك هى أبرز ملامح مشروع الإحياء والتجديد ، الذى دعا إليه ، وجاهد فى سبيل تطبيقه ، هذا التيار ...

وإذا كان « العقد - المنظم » لهذا التيار قد انفرط بعد « الحزب لوطنى الحر » « وجميعة العروة الوثقى » - وهما التنظيمان اللذان قادهما جمال الدين الأفغانى .. وانفرط عقدهما بوفاته - فإن أعلام هذا التيار قد أقاموا العديد من التنظيمات .. والمؤسسات .. والمنابر الفكرية .. وأسهموا فى الإحياء والتجديد بمختلف السبل والوسائل .. فمن « دار العلوم » .. إلى « مدرسة القضاء الشرعى » .. إلى تيار مجلة « المنار » .. إلى جمعية « أم القرى » .. إلى « جماعة العلماء الجزائريين » .. إلى العديد من الأحزاب .. والصحف ..

والمجلات .. ودور النشر .. والجامعات .. والكتب .. التى مثلت القنوات التى عبرت منها معالم هذا المشروع الحضارى إلى عقول قطاع واسع وأفئدة جمهور عريض من أبناء هذه الأمة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ..

صنع هذا التيار ذلك ، رغم الحصار والتضييق اللذين فرضا عليه من تيارى التقليد والمحاكاة .. القليد للموروث .. والمحاكاة للتغريب ! ..

● فعبد الله النديم : يرفع راية الدفاع عن العربية .. ووحدة الأمة .. وتميز تقاليدها .. فى مواجهة الذين انطلقوا .. بعد الهزيمة العسكرية لجيش الثورة العرابية يقلدون الغزاة المنتصرين ! ..

● وقاسم أمين : يدافع – فى [الرد على داركور » – عن تميز التمدن الاسلامى عن التمدن الغربى .. ويضبط – فى [تحرير المرأة] – حريتها بالضوابط الاسلامية – وذلك قبل أن يميل – فى [المرأة الجديدة] – إلى قدر من التغريب ..

● وسعد زغلول : الذى قاد ثورة من أعظم ثوراتنا الوطنية فى العصر الحديث – يرفض العلمانية الغربية ، ويتعجب من « جهل » الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ – ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ – ١٩٦٦ م] الذى زعم فى كتابه [الاسلام واصول الحكم] أن الاسلام « رسالة روحية » لا علاقة له بسياسة الدولة والعمران .. فيكتب قائلا : **لقد قرأت كتاب الاسلام واصول الحكم بإمعان ،**

لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب . فعجبت ، أولا ، كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى مثل هذا الموضوع ؟! ..

لقد قرأت كثيرا للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن منهم فى الاسلام حِدَّة كهذه الحِدَّة فى التعبير ، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق ..

لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياته ، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا ؟!ولا هو بنظام يصلح للحكم ؟؟! ..

فأية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام ؟ هل البيع ؟ أو الإجارة ؟ أو الهبة ؟ أو أى نوع آخر من المعاملات ؟؟! ..

ألم يدرس شيئا من هذا فى الأزهر ؟ أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهودا طويلة كانت أنضر العصور ؟ وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد ، وهى آمنة مطمئنة ؟ فكيف لا يكون الإسلام مدنيا ودين حُكْم ؟!

وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة !. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ؟! .. والذى يؤلمنى حقا ، أن كثيرا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى ، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد ،

سيتحيزون لمثل هذه الأفكار ، خطأ كانت أوصوابا ، دون تمحيص ولادرس ، ويجدون تشجيعا على هذا التحّيز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق ، ومن تسميتها له بالعالم المدقق ، والمصلح الإسلامى ، والأستاذ الكبير .. الخ ...

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأى وبين قواعد الاسلام الراسخة ، التى تصدى كتابه لهدمها ! .. » [1] .

لقد كتب سعد زغلول هذا الكلام فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥ م – أى قبل وفاته بعامين – فأثبت به وفيه أنه قد ظل طوال حياته الفكرية الإبن البار لتيار الإحياء والتجديد ، والتلميذ الوفى لفكر جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده ..

● أما الشيخ مصطفى عبد الرازق : فإنه ينهض بعبء التأسيس لذلك التحول الذى أحدثه هذا التيار فى حقل الدراسات الفلسفية ، وذلك عندما يقدم فى كتابه [تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية] نظرية تميز الفلسفة الإسلامية عن فلسفات الأمم الأخرى .. وكيف أن عقلانية الأمة الاسلامية قد تجلت فيما أبدعه المسلمون فى « أصول الدين » فأرسى بذلك معلما من معالم التميز للمشروع الحضارى الذى أبدعه تيار الإحياء والتجديد .

(١) محمد ابراهيم الجزيرى [سعد زغلول : ذكريات تاريخية] ص ٩١ – ٩٣ . طبعة كتاب اليوم – القاهرة . وانظر كتابنا [معركة الإسلام وأصول الحكم] ص ١٤٩ – ١٥١ . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

● أما رشيد رضا : فهو الذى حفظ الاستمرارية لفكر هذا التيار قرابة أربعة عقود .. تحول فيها [تفسير المنار] إلى معلم جديد لمنهج جديد فى تفسير القرآن الكريم .. وغدت فيها مجلة [المنار] منارة التجديد والإحياء على امتداد عالم الإسلام ..

● وكان الخضر حسين : فارس المعارك الفكرية لهذا التيار ضد المتغربين - وخاصة فى كتابيه : [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم] و[نقض كتاب فى الشعر الجاهلى] .. كما كان فارس التجديد بما كتبه فى الشريعة .. واللغة .. وسبل الإصلاح .. وفارس الجهاد الوطنى ، بالمركز الذى أقامه - بالقاهرة - لدعوات وحركات التحرير الوطنى الاسلامية ، خاصة فى بلاد الشمال الافريقى ..

● أما حسن البنا : فإنه الإمام الذى انتقل بمشروع النهضة هذا من إطار الصفوة المثقفة والنخبة المفكرة إلى أحضان الأمة ، وأيدى الجماهير .. فلقد جاء فى حقبة عمت فيها بلوى الاحتلال الأجنبى ، والتشرذم القطرى ، والهيمنة التغريبية كل أنحاء ديار الاسلام .. فكان لابد من أن تحمل الأمة - وليس فقط علماؤها - مسئولية التربية والإعداد والاستعداد لمواجهة التخلف الموروث والاستلاب الحضارى بهذا المشروع الحضارى الجديد .. مشروع الإحياء والتجديد .. فقدم الرجل فى هذا الميدان أعظم ما يمكن أن يقدمه مجدد مجاهد استشهد وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا بسنوات ثلاث ؟! ...

تلك إشارات إلى طرف من معالم المشروع الحضارى لتيار الإحياء والتجديد .. ونماذج من.مواقع نفر من أعلامه .. آثرنا فيها التمثيل .. فلم نعرج على ابن باديس .. والنهضة التى أعاد بها الجزائر إلى العروبة والاسلام .. ولا على الكواكبى .. وإنجازاته فى الحرية ، والعروبة ، ومعالجة اسباب التخلف ووسائل النهوض .. فالحديث عن هذا التيار حديث « مجلدات » لا « سطور » فى صفحات أ .. [1]

---

(١) انظر كتبنا : [مسلمون ثوار] و[الإمام محمد عبده] و[وجمال الأفغانى] و[رفاعة الطهطاوى] و[عبد الرحمن الكواكبى] و[على مبارك] و[قاسم أمين] و[تيارات الفكر الاسلامى] و[الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى] . طبعة دار الشروق . القاهرة .

و .. من التغريب إلى التجديد :

ورغم الإمكانات الهائلة التى سخرتها السلطات الاستعمارية لدعم تيار التغريب ورعاية مسيرته ، والتى وضعت أغلب مؤسسات التعليم والتثقيف والإعلام تحت هيمنة نظرياته ورجالاته .. ورغم الحصار الذى ووجه به تيار الإحياء والتجديد من أهل الجمود والتقليد ومن المتغربين جميعا .. إلا أن الواقع الفكرى الثقافى — بسبب الحاجة الحضارية للمشروع التجديدى — وبسبب إفلاس أهل التقليد وعجزهم عن تقديم المشروع الحضارى الذى ينير للأمة طريق النهضة والتحرر .. وبسبب فجاجة الرؤى المتغربة والرفض التلقائى والطبيعى الذى تقابل به من عقل الأمة ووجدانها ، اللذين لم تفسد فطرتهما بسبب من هذه العوامل ، وغيرها ، تخلقت فى الواقع الثقافى ظاهرة هامة وذات دلالة وملفتة للأنظار .. ألا وهى : تراجع عدد كبير من الاعلام الذين تغربوا عن التبشير بالنموذج الحضارى الغربى ، بعد أن سلكوا هذا السبيل ، كاجتهاد خاطىء ، وانخراطهم ، فى مرحلة نضجهم الفكرى ، بتيار الإحياء والتجديد ..

وهذه الظاهرة — التى لا تزال قائمة ومستمرة — والتى شملت وتشمل العديد من الذين سلكوا طريق التغريب — بشقيه : الليبرالى والشمولى — تقوم شاهدة على حقيقة تعلمنا بضرورة التمييز فى الذين دعوا ويدعون إلى تبنى النموذج الحضارى الغربى ، بخيره وشره ، بحلوه ومره ، بخطئه وصوابه ، بإنسانياته وخصوصياته وبعلومه الموضوعية

والمحايدة ... تعلمنا ضرورة التميز فى هذا الموكب بين الذين تغربوا عمالة — فكرية » للغرب الاستعمارى ، بسبب كراهيتهم للإسلام ، وسعيهم الواعى والمخطط لإزاحة صبغته عن مشروع النهضة وفلسفة الحاكم والعمران ، وبين الذين تغّربوا بسبب اجتهادهم الخاطىء ، الذى دفعهم الى الظن بان استعارة النموذج الغربى هو السبيل الى القوة والنهضة التى تحرر أوطاننا من اغلال الاستعمار والهيمنة الغربية .. لقد رأوا الاسلام فى الصورة التى قدمها له تيار الجمود والتقليد ، فأيقنوا بعجز هذه الصورة عن أن تكون السبيل للتحّرر من الهيمنة الغربية ، وعندما وازنوا بين هذه الصورة وبين النموذج الغربى ، بهرهم الغرب وأدهشتهم إنجازاته .. وخدعوا بزعم الغرب وحدة الحضارة ، فحسبوا أن التحضر والتقدم لا يقتضى مشروعا حضاريا متميزا ، وإنما يقتضى اللحاق بالغرب ، والاشتراك معه فى حضارته ، التى صدقوا أنها الحضارة « الانسانية » و« العالمية » .. فكان أن اعلنوا — بلسان واحد من أعلامهم — : « أن السبيل .. واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهى واحدة فذة ليس لها تعدد ، وهى : أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب » ! (١)

لكن عددا من هؤلاء الأعلام ، الذين قادهم الإجتهاد الخاطىء

---

(١) د. طه حسين [مستقبل الثقافة فى مصر] . ج ١ ص ٤٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

إلى هذا الموقع الفكرى ، قد أدركوا ، بالتجربة ، أن « بذور التغريب » غير صالحة للإنبات فى « تربتنا الحضارية » وأن « فطرة الأمة » ، التى كونها تراثها المتميز وتاريخها الحضارى المغاير لنظيره الغربى ، إنما ترفض التغريب رفض الجسد للجسم المقحم عليه والغريب عنه .. فلما نظروا صورة الاسلام ، كما عرضها تيار الإحياء والتجديد ، وجدوا ضالتهم المنشودة فيه ، فكانت عودتهم عن التغريب إلى الإحياء والتجديد ..

وإذا نحن شئنا استقصاء الأعلام الذين كونوا هذه الظاهرة ، طال بنا الحديث ، وخرج عن ما يقتضيه المقام .. ولذلك فإننا سنقف هنا عند الإشارة إلى نماذج ثلاثة ، علا نجمهم فى التيار المتغرب .. ثم راجعوا فكرهم ومواقفهم ، فكانت عودتهم – الصريحة أو الضمنية – المصحوبة بالنقد الشجاع للمسيرة الماضية .. والخالية من هذا النقد الشجاع – .. كانت عودتهم عن طريق التغريب إلى تيار الإحياء والتجديد ..

● **فالشيخ على عبد الرازق** [١٣٠٥ – ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ – ١٩٦٦ م] : قد خرج على الناس فى سنة ١٩٢٥ م بكتابه [الاسلام وأصول الحكم] .. فأثار أكبر معركة فكرية فى تاريخنا الحديث .. وغدا كتابه هذا اهم « وثيقة » فى يد « العلمانيين » الذين يريدون للشرق أن يعزل الاسلام عن الدولة والمجتمع كما عزل الغرب المسيحية عنهما ..

ففى هذا الكتاب يقول عالم أزهرى ، وقاض شرعى - لأول مرة فى تاريخ العلم الاسلامى والعلماء المسلمين - إن الاسلام دين ورسالة روحية ، لا دولة فيه ولا سياسة .. وأن الخلافة الاسلامية كانت -

كالكهانة الغربية - استبداداً وطغياناً باسم الدين .. وان نبى الاسلام ﷺ ، لم ينشىء دولة ولم يقم حكومة ، ولم يصنع إلا ماصنعه الرسل السابقون : البلاغ ، المجرد عن التنفيذ ! ..
فعنده : **أن محمدا ، ﷺ ، ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ، ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا إلى ملك .. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبى ، ﷺ ، لم يكن له شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان .. إنما كانت ولاية محمد ، ﷺ ، على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشىء من الحكم .**
. هيهات هيهات ، لم يكن ثمة حكومة ، ولا دولة ، ولا شىء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء .. لم يكن هناك ترتيب حكومى ، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان الخ .. كانت زعامة دينية .. ويا بعد ما بين السياسة والدين .. » (1)

---

(1) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨ - ٨٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

لكن هذا الشيخ ، الذى استفز الضمير المسلم كما لم يستفزه عالم دينى عبر التاريخ .. والذى افترى على الاسلام ورسوله فرية لم يفترها مستشرق حاقد أو جاهل ... سرعان ما عاد – بالتدريج ، ودون إعلان صريح – إلى العدول عن فرية أن الاسلام مجرد رسالة روحية لا دولة فيها ولا سياسة ولا حكم ولا تنفيذ .. فأجاب – بعد أن حاكمته وأدانته « هيئة كبار العلماء » – وبعد أن فند زعمه ونقض دعواه عدد كبير من أعلام العلماء – أجاب على سؤال الجماعة من العلماء ، فقال : « **إن الاسلام دين تشريعى ، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده ، وإن الله خاطبهم جميعا بذلك** » [1] .. وذلك بعد أن كان قد زعم فى كتابه أن الواجب هو إقامة أية حكومة : بلشفية أو رأسمالية ، ديمقراطية أو استبدادية ! ..

وفى مرحلة تالية من مسيرته الفكرية – سنة ١٩٥١ م – دار حوار بينه وبين الدكتور أحمد أمين [١٢٩٥ – ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ – ١٩٥٤ م] حول دواء ما وصل إليه المسلمون من جمود ، فقال فى هذا الحوار : « إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديما من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل الخ .. »

---

(١) صحيفة [السياسة] – اليومية – العدد ٨٨١ بتاريخ ١ – ٩ – ١٩٢٥ م .

فلما نشر أحمد أمين ذلك – فى مجلة [رسالة الإسلام] [1] – علق على عبد الرازق على هذه العبارة – عبارة : « إن رسالة الإسلام روحانية فقط / – فقال : « ما أرى إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين .

وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى .. يومئذ ، ولم أرِد معناها ، ولم يكن يخطر لى ببال ! ..

بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة ليعيدها جذعة [2] تلك الملحمة التى كانت حول كتاب « الاسلام وأصول الحكم » .. وللشيطان أحيانا كلمات يلقيها على السنة بعض الناس .. » ؟! [3]

هكذا تراجع على عبد الرازق عن « البدعة » التى لم يسبقه إليها عالم من علماء الاسلام .. بدعة « علمنة الاسلام » .. وبقى أن يعى ذلك تيار التغريب ، الذى يتمسك حتى الآن برأى تراجع عنه صاحبه ، ويلعب بورقة سحبها صاحبها منذ عشرات السنين : ..

● أما الدكتور طه حسين : [١٣٠٦ – ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ – ١٩٧٣ م] : فلعل أشد آرائه المتغربة استفزازا للعقل المسلم كانت تلك التى حوتها صفحات من كتابيه [فى الشعر الجاهلى] – الذى

(١) عدد ابريل سنة ١٩٥١ م .
(٢) جذعة : أى جديدة .. مرة أخرى .
(٣) انظر مقاله فى مجلة [رسالة الاسلام] – عدد مايو سنة ١٩٥١ م .

صدر سنة ١٩٢٦ م – و[مستقبل الثقافة فى مصر] – الذى صدر سنة ١٩٣٨ م ..

فهو فى الكتاب الأول – [فى الشعر الجاهلى] – يعرض لقضية من قضايا النقد الأدبى – قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى – وهى قضية تكلم فيها قدماء ومحدثون ، عرب ومستعربون .. ولا علاقة للخلاف حولها بمقدسات الدين وعقائد الإسلام ..

لكنه – فى هذا الكتاب – بعد أن تحدث عن افتقار أغلب الشعر الجاهلى إلى الصدق – صدق الثبوت – الذى يجعله المصدر الثقة فى وصف وتصوير الحياة الجاهلية ، تحدث عن القرآن الكريم حديثا طيبا قال فيه : « إن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى . **ونص القرآن ثابت لاسبيل الى الشك فيه** »(١) لكنه قد عاد فجمح به الفكر واشتط منه القلم عندما سطر نحوا من ثمانية وعشرين سطرا ، رفض فيها تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول :

أ – علاقة الإسلام بملة إبراهيم ، عليه السلام .. والحنيفية والحنفاء ..
ب – وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ..
جـ – وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم ، عليه السلام .. (٢)

---

(١) [فى الشعر الجاهلى] ص ١٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .
(٥) المرجع السابق . ص ٨٠ ، ٨١ .

وبعد الضجة الكبرى التى أثارتها هذه السطور ، التى تشكك فى القرآن ، بعد أن قال كاتبها – وفى ذات الكتاب – : « إن نصّه ثابت لا سبيل الى الشك فيه » .. وبعد النقد والنقض والتفنيد الذى وجه إلى هذا الرأى تحديدا ... حذف الدكتور طه هذه السطور من كتابه ، وأعاد النظر فيه ، بالإضافة والتوثيق والضبط والتصحيح ، وأعاد نشره تحت عنوان جديد – [فى الأدب الجاهلى] – ..

فإذا علمنا أن الكتاب ، فى صورته الأولى ، لم يصادر .. وأن النيابة العامة قد حفظت التحقيق مع المؤلف ، دون توجيه أى اتهام إليه ، كنا مطمئنين إلى ما نراه من أن حذف المؤلف لهذه السطور الثمانية والعشرين إنما كان عدولا منه عن ذلك الرأى البالغ فى الشذوذ حد التناقض مع ما قطع به هو نفسه ، فى ذات الكتاب ، من « أن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلى ، وأن نصه ثابت لا سبيل إلى الشك فيه » ...

أما كتابه الثانى – [مستقبل الثقافة فى مصر] – فلعل بعض صفحاته أن تكون أكثر أصوات التغريب علواً وصراحة – بعد كتابات سلامة موسى – ! ..

ففى هذا الكتاب يعلن طه حسين ما سبقه إليه سلامة موسى ، عندما يقول : « **إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول** .. » [1] .

---

(1) [مستقبل الثقافة فى مصر] ج ١ ص ١٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

ويتبنى ما سبقه إليه على عبد الرازق ، فيقول : « إن السياسة شىء والدين شىء آخر .. » [1] .

ويدعو إلى الإلحاق والالتحاق الحضارى بالغرب ، بدعوى وحدة العقل المصرى والشرق مع العقل الغربى ، فكلاهما قد صيغ صياغة يونانية ؟!.. فعنده أن العقل الإسلامى هو – كالعقل الأوربى – مرده إلى عناصر ثلاثة :

– حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن .
– وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه
– والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان .. [2]

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليونانى للعقل الأوربى .. فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليونانى للعقل الشرقى ، لأن القرآن « إنما جاء متمما ومصدقا لما فى الإنجيل » ؟!! .. [3] .

ثم يخلص إلى أن يقول : وهكذا « كانت مصر دائما جزءا من أوربا ، فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها .. » [4]

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق . ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق . ص ٢١ ، ٢٢
(٤) المرجع السابق . ص ٢٦ .

وكما حدث مع كتابه [فى الشعر الجاهلى] .. فلقد ووجه هذا الكتاب بحملة كبيرة من النقد والنقض والتفنيد .. وأبرز معارضوه دور الدين واللغة فى الوحدة السياسية للدول والقوميات .. وتحدثوا عن تميز الإسلام فى العلاقة بين السياسة والدين .. وفندوا مزاعمه حول يونانية العقل الشرق .. ودحضوا افتراءه حول أن القرآن لم يصنع بالعقل الشرق أكثر مما صنع الإنجيل بالعقل الأوربى .. إلخ ..

حدث جميع ذلك فى الساحة الفكرية ، دونما مصادرة لرأى او منع لكتاب ..

وإذا كان طه حسين لم يحذف هذه الصفحات من كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] – كما حذف السطور الثمانية والعشرين من كتابه [فى الشعر الجاهلى] –.. فلأنه – فى تراجعه عن هذه الآراء – قد صنع أكثر مما صنع فى كتابه الأول .. فلقد أحجم عن إعادة طبع هذا الكتاب – [مستقبل الثقافة فى مصر] – طوال حياته ، ودون جميع كتبه الأخرى ؟!.. وعندما سئل سنة ١٩٧١ م – عن هذه الآراء التى أثارت الجدل ، والتى تضمنها هذا الكتاب ، أعلن – رغم كبريائه المتضخم ؟! – : أنها آراء تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل وإصلاح .. فقال عن هذا الكتاب : « ده كُتِب سنة ١٩٣٦ م .. قُدُم قوى ، عاوز يتجدد .. ويجب أن أعود إليه ، وأصلح فيه بعض حاجات ، وأضيف .. » [1] .

---

(١) أنظر حديثه هذا فى صحيفة [الأهرام] عدد أول مارس سنة ١٩٧١م .

وهكذا عاد طه حسين عن اجتهاداته الخاطئة ، التى وضعته فى معسكر المتغربين .. لأنه كان صاحب اجتهاد ، أخطأ فيه فتغرب .. فلما أصاب عاد إلى مشارف تيار الإحياء والتجديد .. وهو مأجور فى كل الأحوال .. فلم يكن فى يوم من الأيام « عميلا فكريا » كما كان الحال مع الذين كرهوا الإسلام فسعوا إلى التغريب محاولين زراعته فى تربتنا الحضارية على أمل اقتلاع الإسلام !..

● **أما الدكتور محمد حسين هيكل** [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] : فلقد كان النموذج الأكثر صدقا وموضوعية وشجاعة فى هذه الظاهرة .. ظاهرة العدول عن التغريب ، كاجتهاد خاطىء ، إلى تيار الإحياء والتجديد ، الذى يقدم للأمة فكرها « الطبيعى » والقادر على إنارة طريقها إلى النهضة والانعتاق من هيمنة الحضارة الغربية ..

فلقد تحدث الرجل حديث صدق ، وأعلن فى شجاعة عن الملابسات التى اكتنفت آراءه السابقة المتغربة ، وعن الأسباب الموضوعية للتحولات الفكرية التى تبنى بها الخيار الحضارى الإسلامى .. صنع ذلك ، وهو يحاور أصدقاء الأمس ، الذين أصبحوا ناقدين له وغامزين إياه بعد ما حدث لفكره من تحولات ..

وإذا نحن شئنا أمثلة من هذه التجربة فى التحول الفكرى من « التغريب » إلى « التجديد » فإننا نقدم شهادة الرجل ، وبنفس عباراته ، على التحولات التى حدثت لفكره فى المقولات والقضايا

الأساسية التى كان يطرحها ويبشر بها المتغربون ، والتى مازالت مطروحة فى ساحة التغريب حتى الآن ؟!..

أ ـ فالرجل قد بدأ حياته متغربا .. وكان موقعه من أحمد لطفى السيد باشا هو موقع التلميذ من الأستاذ .. ولقد مارس النشاط الفكرى المبكر كاتبا فى « الجريدة » ـ التى أصدرها ورأس تحريرها لطفى السيد ـ وهى المنبر الذى كان يبشر بالوطنية والقومية ، بمعناهما الغربى ، فيرى ضرورة استقلال مصر عن محيطها العربى والإسلامى استقلالا سياسيا وحضاريا ، على النحو الذى يحررها من الاستعمار الانجليزى ، ويلحقها فى ذات الوقت بالحضارة الغربية ..

بدأ هيكل فى هذه المدرسة الفكرية .. فلما حدث له التحول الفكرى ـ وهو فى العقد الخامس من عمره ـ سن النضج الفكرى ـ كتب ناقدا وناقضا للفكرة القومية ، بمعناها ومضمونها الغربى ، ومعلنا انتماءه إلى مفهوم الأمة الواحدة ، المؤسس على عقيدة التوحيد ، التى هى جوهر دين الإسلام .. كتب يقول :

« إن الفكرة الإسلامية ، المبنية على التوحيد ، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحدات متنافسة ، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه .

● ● ●

ولقد تأثرنا ، معشر أمم الشرق ، بهذه الفكرة القومية ، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة ، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا . وخيل إلينا ، فى سذاجتنا ، انا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا ، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية .

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جرائم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها ، وزادنا ما خيم علينا من سُجُف الجهل إمعانا فى هذا النسيان .

على أن التوحيد ، الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا ، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ..

ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذل ، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه ، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التى جعلها الغرب إلهه !.. » [1] .

فهو ، هنا ، يحدد أن تبنيه ـ هو وأمثاله ـ للنموذج الغربى فى القومية ، إنما كان اجتهادا خاطئا ، ظنوا أنه السبيل إلى « أن نعيد مجد آبائنا ، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر من

---

(١) [فى منزل الوحى] ص ٢٢ ـ ٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م .

كرامتنا الإنسانية » .. ويعلن أن الذى ساعد على الخطأ فى هذا الاجتهاد ، هو « بريق حضارة الغرب » و « السذاجة » التى عليها المتغربون ؟!.. ويقول إن التحول الذى حدث له ، من التغريب إلى التجديد ، إنما أعان عليه تلك « الفطرة » التى رسخها التوحيد الإسلامى فى أرواح أبناء الإسلام .. وأن التماس مشروع إنهاض الأمّة من حضارتها وعقيدتها ، إنما هو السبيل الى الخروج من « الجموذ المذل » – الذى عليه تيار التقليد والجمود – واتقاء « الخطر الغربى » – الذى يكرسه المتغربون – !..

ب – وبالنسبة للعلمانية ، التى تفصل الدين عن الدولة ، والتى بشر بها المتغربون – لأنها قسمة أصيلة فى مشروع النهضة الغربية – .. كان الدكتور هيكل فى سنة ١٩٢٥ م رئيس تحرير صحيفة [السياسة] – لسان حال حزب « الأحرار الدستوريون » – .. ومن موقعه هذا قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ على عبد الرازق – [الإسلام وأصول الحكم] – ذلك الذى ادعى فيه علمانية الإسلام ، وخلوّه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنفيذ – . فهو عنده « رسالة روحية » و « يا بعد ما بين السياسة والدين » .. ونبى الإسلام – كما زعم صاحب هذا الكتاب – لم يُقِم دولة ، ولم يرأس حكومة ، ولم يؤسس ملكا ، وإنما كان ، كالخالين من الرسل ، مجرد مبلغ لا علاقة له بالتنفيذ !..

كان الدكتور هيكل ، فى سنة ١٩٢٥ م ، قائد حملة الدفاع عن

هذه العلمانية .. فلما حدث له التحول الفكرى .. وقدم للناس - فى سنة ١٩٣٥ م - كتابه [حياة محمد] - نقض فيه مرتكزات العلمانية من الأساس ، وأوضح تميز الإسلام عن المسيحية ، واختلاف الإنجاز المحمدى فى السياسة والدولة عن عيسى ، عليه السلام ، وغيره من الرسل الخالين ، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة المتميزة لحضارة الإسلام فى هذا الموضوع .. موضوع العلاقة بين الدين والدولة .. فكتب يقول : « **لقد أقام محمد دين الحق ، ووضع أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادة العالم .**

والدين والحضارة اللذان بَلَّغهما محمد للناس ، بوحى من ربه ، يتزاوجان ، حتى لا انفصال بينهما .. وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية : أى بين الكنيسة والدولة ، **فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع فى تفكير الغرب وفى اتجاه تاريخه ..** » [1] .

فهو هنا يجعل الحضارة الإسلامية والدين الإسلامى بلاغا إلهيا إلى الرسول ، ﷺ ، ويؤكد أن النبى ، كما أقام الدين ، فلقد وضع أساس الحضارة ، وأنهما ، لذلك ، « لا انفصال بينهما » .. كما ينبه على تميز التاريخ الإسلامى عن تاريخ الغرب فى العلاقة بين الدين والدولة .. الأمر الذى يجعل من السفاهة الفكرية إستعارة حل غربى - هو العلمانية - لمشكلة لم يعرفها الشرق - وهى الكهانة

(١) [حياة محمد] ص ٥١٦ ، ٥١٩ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨١م .

واستبداد الكنيسة بالدولة والسلطة الزمنية - ..

جـ - ثم يقدم لنا موقفا نقديا متكاملا للمرحلة التى تغرب فكره فيها .. ملابسات هذا التغرب .. وأسباب التحول عنه إلى أحضان حضارة الإسلام .. فيقول : « **لقد خُيِّل إلىّ زمنا ، كما لا يزال يُخَيَّل إلى أصحابى ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية هو سبيلنا إلى النهوض والتقدم .. فحاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية والروحية ، لنتخذها جميعا هدى ونبراسا .**

ولكننى أدركت ، بعد لأى ، أننى أضع البذر فى غير منبته ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة ..

وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكننى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله . فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته « البابوية » المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقى الشرق بريئا من الخضوع لهذا التفكير ..

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية للنهوض بهذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ؟!

لا مفر ، إذا ، من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية ، نحيى بها ما فتر فى أذهاننا ونخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا ..

هذا كلام واضح بيّن . ومن عجب أن يخفى على أصحابى ، فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علىّ !

ولكن ، لا عجب ، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات ، كما لا يزال خفيا عن كثيرين منهم !.. » [1] .

هنا ، يقدم الدكتور هيكل وثيقة فى الموضوعية الفكرية ، وفى الشجاعة الفكرية جديرة بأن تكون موضوع دراسة ونموذجا للاقتداء .. وهى وثيقة ما نظن أنها فى حاجة إلى تعليق !..

د ـ ولا ينسى الرجل أن يحدثنا عن تجربة أخرى له ، توسطت بين مرحلتى التغريب والتجديد .. فلقد ظن ـ بعد أن تيقن من استحالة اتخاذ النموذج الغربى مشروعا لنهضتنا ـ ظن أن « النموذج الفرعونى » القديم ـ وهو تراث مصرى ـ قد يكون صالحا للبعث ، كمشروع للنهضة المصرية المنشودة .. فبشر ـ مع آخرين ـ بالفرعونية .. ثم اكتشف أنها ، هى الأخرى وهم من الأوهام ، فلقد غدت تاريخا يدرسه المتخصصون ، ومتاحف تعين على الدراسات الحضارية والتاريخية للقدماء .. على حين قد انطبع حاضر الأمة وعقلها

---

(١) [فى منزل الوحى] ص ٢٢ ـ ٢٦ .

ووجدانها بطابع جديد ، وصيغا صياغة جديدة ، قوامها مقومات الإسلام .. فكتب الرجل عن هذا المنعرج من منعرجات رحلته الفكرية يقول :

« ... ولقد انقلبتُ ألتمس فى تاريخنا البعيد ، فى عهد الفراعين ، موئلا لوحى هذا العصر ، ينشأ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذرا لنهضة جديدة .

ورَوَّأتُ [1] فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين .. » [2] .. — وهو هنا يتبنى موقف محمد عبده — الذى أشرنا إليه — حول : ان الإسلام هو سبيل الاصلاح .

هـ — ولذلك .. خلص الدكتور هيكل ، وهو يتحدث عن هذا التحول الفكرى ، الذى انتقل به من مواقع « تيار التغريب » — عبر دعاة « النزعة الفرعونية » — إلى مواقع تيار « الإحياء والتجديد » .. خلص إلى تقديم مفهوم عميق وموضوعى ومتميز لعلاقة « الأصالة » « المعاصرة » ..

فإذا كانت « الأصالة » هى المنابع الحضارية والقسمات الثوابت

---

(1) روّأ فى الأمر تروئة ، وترويئا : نظر فيه وتعقبه ، ولم يتعجل فيه .

(2) المصدر السابق . ص٢٢ – ٢٦ .

فيها ، والمميزة لها .. فإن « المعاصرة » لا تعنى إضافة الحضارة الغربية المعاصرة إلى أصالتنا ، ليصبح « تاريخنا » الحضارى إسلاميا ، و « واقعنا وحاضرنا » الحضارى غربيا .. وإنما « المعاصرة » — ومعناها : التعامل مع العصر — لابد لها من أن تتميز ذات التميز الذى تميزت به « الأصالة » ، حتى تكون طبيعية ، ومقبولة ، ومتسقة مع الأصالة ، وحتى تحقق للأمة تميزها وتواصلها الحضارى ، فلا تكون أداة للمسخ والنسخ والتشويه ، وسبيلا للانقطاع الحضارى ، والإلحاق والتبعية لحضارة أخرى ؟!..

• • •

لقد خلص الدكتور هيكل إلى هذه المعانى لمصطلحات « الاصالة » و « المعاصرة » — وهى التى لاتزال غائبة عن كثيرين ؟! — .. فكتب يقول :

« إن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل . وإن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها .

ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا ، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته .. والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب ..

لذلك ، لم ألبث حين تبينت هذا الأمر ، أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية .. فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماسا لرضاه .. كما يزعم الذين يغمزون ؟! .. » [1] .

★ ★ ★

إنه شاهد صدق .. بل أعظم شواهد الصدق على هذه الظاهرة التى تخلقت فى حياتنا الفكرية والثقافية .. ظاهرة تحول أولئك الذين كان تغربهم اجتهادا خاطئا ـ عندما اكتشفوا خطأهم ـ وعندما نضجوا فكريا ، فأدركوا حقيقة الإسلام ، وحضارته ، وحقيقة العروة الوثقى بين عقيدة الأمة وحضارتها وبين أى مشروع للنهضة ، يرجى منه أن يكون سبيلا للتقدم والنهوض والإحياء .. عند ذلك ، حدث لهم هذا التحول العظيم من موقع « التغريب » إلى موقع « الإحياء والتجديد » تاركين فى معسكر التغريب أولئك الذين اختاروه واعين وعامدين ومتآمرين .. لأنه ، بالنسبة لهم ، هو البديل للإسلام الذى يكرهون ؟!..

★ ★ ★

ونحن نقول إن هذه التحولات قد مثلت « ظاهرة فكرية » ، ولم تقف عند « الحالات الفردية » .. لقد غدت تيارا مؤثرا ، يتطلع إليه

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢ ـ ٢٦ .

الجمهور الراغب فى التقدم إنطلاقا من منابع التراث .. وإلى هذه الحقيقة يشير الدكتور طه حسين – فى بعض كتاباته – بالفرنسية التى عرض فيها لدراسة هذه الظاهرة .. فيقول : « لقد نشأت فيما بين سنتى ١٩٣٣ و١٩٤٦م حركة أدبية كاملة ذات طابع دينى .. » ..

ثم يعرض لإسهامات الدكتور محمد حسين هيكل فى هذه الحركة الجديدة – « ذات الطابع الدينى » – من مثل كتاباته عن [حياة محمد] و [فى منزل الوحى] وكتبه عن « أبو بكر » و « عمر » .. وغيرها .. فيؤكد على أن منهج هيكل هنا قد كان منهج مدرسة وتيار الإحياء والتجديد .. وبعبارته : « .. لقد طبق حسين هيكل فى كتابه – [حياة محمد] – منهج جمال الدين ومحمد عبده .. » .

ويشير إلى جمهور هذا التيار ، عندما يتحدث عن الاستقبال الذى لقيه كتاب [حياة محمد] .. ودلالة هذا الاستقبال ، فيقول : « .. وقد لقى هذا الكتاب نجاحا منقطع النظير فى العالم العربى كله بين أصحاب الثقافة الرفيعة وعامة الجمهور على حد سواء . وهو ما أثبت أن الشعوب الإسلامية تطمح بحق إلى الحضارة الحديثة ، ولكنها لا ترغب مع ذلك فى التخلى عن التراث !.. » [1] .

---

(١) [طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقا] – كتابات بالفرنسية ، جمعها وترجمها : عبد الرشيد الصادق محمودى . ص ٦٥ ، ٦٦ – طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م .

وأخيراً ..

تلك هى الملامح الرئيسية للتيارات الفكرية التى تنازعت ثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامى المعاصر .. والتى كان تنازعها — ولا يزال — مصدر استنزاف طاقات الفرقاء المختلفين فى الصراع الثقافى والفكرى الداخلى ، فلم يستطع طرف الهيمنة وتحقيق السيادة للمشروع الذى يريد .. فكانت النتيجة أن أصبحت قوى الجميع واقفة ومتوقفة عند « السلب » أكثر من « الإيجاب » ، وكأنما الناتج هو « الصفر » من هذا الصراع ؟!..

● إن تيار التقليد — الذى يعتبر عقل الأمة « مملوكيا — عثمانيا » — وهو يهيمن على وجدان قطاع عريض من العامة — قد انسحب من « الحاضر » إلى « الماضى » يستفتى « الموتى » فى ما هو جزئى وثانوى من شئون حياة « الأحياء » .. ويكتفى ، فى الشئون العامة ، بإطلاق البخور للسلاطين ! وإسهاماته فى « الدراسات المستقبلية » لا تتعدى التأليف فى « عذاب القبور » ؟!..

● وإن تيار التغريب — الذى يعتبر عقل الأمة : « يونانيا — غربيا » — وخاصة بعد تعاظم تيار اليقظة والصحوة الإسلامية — يسفر عن وجهه الحقيقى ، مقتربا من خنادق الأعداء ، ساعيا إلى صب حاضر الأمة ومستقبلها فى مستنقع التبعية للحضارة الغربية — مكررا — فى ضحالة — مقولات التغريب التى سبق

وتراجع عنها أصحابها فى العقود الأولى من هذا القرن العشرين !..

● أما تيار الإحياء والجديد ـ القائل بأن عقل الأمة : عربى إسلامى ـ والذى يحاصره أهل التقليد وأهل التغريب جميعا ـ فإنه يحاول صياغة مشروعه الحضارى العربى الإسلامى .. لكن تفرق رموزه ، يجعله عاجزاً ، حتى الآن ، عن إحداث التحولات النوعية التى تغير من السكون والركود السائدين فى هذا الميدان !..

★ ★ ★

ولعل فى :

١ ـ انتظام أعلام الإحياء والتجديد فى مؤسسات فكرية ، لها منابرها الثقافية ، ومراكزها البحثية ...

٢ ـ وفتح قنوات التأثير والتأثر بين « أهل الفكر » ـ فى تيار الإحياء والتجديد ـ وبين « أهل الحركة » ـ فى تيار الصحوة الإسلامية ـ ..

٣ ـ واقامة حوار فكرى منظم ، ومرحلى ، ومخطط له ، بين هذه التيارات الفكرية الثلاثة ـ أهل التقليد .. وأهل التجديد .. وأهل التغريب ـ لعل فى اقامة هذا الحوار مايؤدى الى اقناع اهل التقليد ـ أو الكثيرين منهم ـ باستحالة صب واقعنا ـ الحاضر والمستقبل ـ فى قوالب الماضى .. وإقناع أهل التغريب ـ وخاصة أصحاب الإجتهاد الخاطىء منهم ـ باستحالة صب حاضرنا ومستقبلنا فى قوالب الحضارة الغربية .

وبضرورة اكتشاف « مساحة الوحدة على الأصول » بين مختلف التيارات ، و « مساحة التعددية فى الفروع » ، بين هذه التيارات ..

وبضرورة التمييز بين « الثوابت » و « المتغيرات » فى تراثنا .. والتمييز فى مواريث الحضارات الأخرى بين « المشترك الإنسانى العام » وبين « الخصوصيات الحضارية » ...

فبذلك ينمو التيار الوسطى – تيار الإحياء والتجديد – .. وتجتمع أغلب طاقات وإمكانات العقل العربى والإسلامى على معالم المشروع الحضارى الذى يفجر الإبداع فى حقل الفكر والثقافة ، فتتجاوز الأمة أزمة ثقافتها العربية والإسلامية ، التى دخلت بها فى المأزق الذى تعيش فيه ..

إن للتقدم الحضارى سننه وأسبابه .. وكذلك الحال مع التخلف والتراجع الحضارى .. وإن للنهضة قوانينها وشروطها .. وإن فى طرح القضية – قضية أزمة الفكر الإسلامى المعاصر ، فى أبعادها المختلفة ، وجوانبها المتعددة .. ومنها مشكلات :

- الموقف من العقل .. وضرورات ، ومعانى تحريره ..
- والموقف من الموروث الفكرى ... والعلاقة بينه وبين الجديد والتجديد
- والموقف من الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة والمعاصرة ..

● وموقف « الأنا : الحضارى » من « الآخر : الحضارى » ..

● وهذا الانقسام القائم فى الفكر المسلم حول مرجعية المشروع الحضارى ، الذى لابد من صياغته كدليل عمل ينير الطريق إلى النهضة الإسلامية المنشودة ..

إن طرح هذه القضية ، بجوانبها المتعددة وإدارة الحوار حول هذه القضايا والمشكلات ، وحول سبل الحل لها والخروج من مآزقها ، لهو إسهام طيب .. وخطوة على طريق تنمية الوعى بالذات الإسلامية .. وتنمية الولاء والإنتماء للمشروع الإسلامى .. وتحريك الطاقات الإسلامية على درب الإحياء واليقظة والإصلاح ، لتعود للإسلام ، مرة أخرى ، إمامة الدنيا ، ولتمارس أمته ، بالنسبة لغيرها من الأمم ، دور المرشد الأمين – لعل الله أن يبارك المسعى نحو عودة الشهود الحضارى للإسلام والمسملين فى هذا العالم من جديد .. وصدق الله العظيم : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .. »[1] .

وعلى الله قصد السبيل .. منه نبتغى العون والسداد والتوفيق ..

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

المصــادر ..

- **القرآن الكريم .**
- **كتب السنة :**

[صحيح البخارى] طبعة دار الشعب – القاهرة .

[صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

[سنن الترمذى] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

[سنن النسائى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

[سنن أبى داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

[سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

[سنن الدارمى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

[مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

- **كتب أخرى :**

جارودى (روجيه) : [ماركسية القرن العشرين] ترجمة نزيه الحكيم – طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

: [الإسلام والإشتراكيـــة] – محاضرة – مجلة « الطليعة » – القاهرة – يناير سنة ١٩٧٠م .

سلامة موسى : [البلاغة العصرية واللغة العربية] طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥م .

: [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م .

طه حسين (دكتور) : [مستقبل الثقافة فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

: [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م .

: [طه حسين فى جديده الذى لم ينشر سابقا] ترجمعة عبد الرشيد الصادق المحمودى . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م .

على عبد الرازق (الشيخ) : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م .

· [الاجتهاد فى نظر الاسلام] - تعليق - مجلة « رسالة الاسلام » مايو سنة ١٩٥١ م .

على عقلة عرسان : [الفصحى والعامية والحوار المسرحى] - بحث - طبعة الرياض سنة ١٩٩٠ م .

القرطبى : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

لطفى السيد (أحمد) : [قصة حياتى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م .

محمد إبراهيم الجزيرى : [سعد زغلول : ذكريات تاريخية] طبعة كتاب اليوم ـ القاهرة .

محمد حسين هيكل (دكتور) : [حياة محمد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م .

: [فى منزل الوحى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م .

محمد عبده (الأستاذ الإمام) : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

محمد عمارة (دكتور) : [جمال الدين الأفغانى المفترى عليه] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م .

: [الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل] طبعة بيروت سنة ١٩٧٦م .

: [معركة الإسلام وأصول

الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م .
محمد فؤاد عبد الباقى : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب – القاهرة .
محمد محمد حسين (دكتور) : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠م.
ميشيل عفلق : [فى سبيل البعث – الكتابات السياسية الكاملة] طبعة بغداد ١٩٨٧ – ١٩٨٨م .
وينسنك (أ . ى) : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن ١٩٣٦ – ١٩٦٩م .

● دوريات :

[الأهرام] سنة ١٩٧١م .
[رسالة الإسلام] – القاهرة – سنة ١٩٥١م .
[السياسة] – القاهرة – سنة ١٩٢٥م .
[الطليعة] – القاهرة – سنة ١٩٧٠م .

الفهـــرس

صفحة

رقم الايداع : ٩٦٧٥ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-5087-04-X.

الكتاب التالى من هذه السلسلة
الكتاب السادس

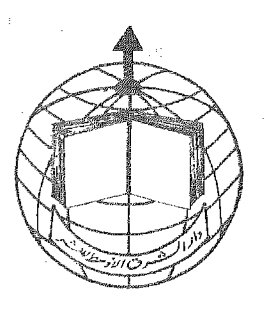
نحو بديل حضارى إسلامى للتنمية

تأليف : د صلاح عبدالمتعال

ويدعو هذا الكتاب إلى تبني نموذج حضارى إسلامى بديل لنماذج التنمية المنتسبة إلي المذهبيّات المادية الاشتراكية أو الرأسمالية ، ويسعى هذا النموذج الإسلامي إلى تحقيق حياة طيبة للمجتمع .

صدر من هذه السلسلة حتى الآن :

١ - الكتاب الأول : أزمة الشورى فى المجتمعات العربية والإسلامية - الشيخ محمد الغزالى .
٢ - الكتاب الثانى : الإسلام والقتال - د. أحمد عبدالرحمن
٣ - الكتاب الثالث : الإسلام والمرأة - أحمد حسين
٤ - الكتاب الرابع : الإسلام والكون - جا د. محمد جمال الدين الفندى
٥ - الكتاب الخامس : أزمة الفكر الإسلامى المعاصر د. محمد عمارة



هـذا الكتـاب

ان دوام الحال من المحال ..

وإذا كان الاجماع قد إنعقد على أن « النهضة » هى طوق النجاة للعرب والمسلمين من مخاطر التحديات الشرسة التى تهدد حاضرهم ومستقبلهم .. سواءً منها بقايا التخلف الموروث أو الاستلاب الحضارى الوافد ... فإن هذه « النهضة » مستحيلة دون « دليل عمل » ينير لأصحابها الطريق .

- فما هو موقع « الفكر » من الأزمة الراهنة ؟ وفى دليل العمل المنشود ؟
- وما هى التيارات الفكرية المعاصرة ... تلك التى تصنع الأزمة ؟ .. وتلك التى تجاهد للخروج منها ؟
- للاجابة على هذه الأسئلة ، ولتحديد معالم هذا الطريق .... يصدر هذا الكتاب .



دار الشرق الأوسط للنشر

١٥٣ شارع الطيران . مدينة نصر . القاهرة

تليفون ٢٦٠٥٧٠٧